لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

الجزء الرابع

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

-منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

-هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

-الكمال لله-عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثالث والعشرون

تفسير الآيات: ٣٠-٤٧ من سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثالث والعشرون من سلسلة اللقاءات في هذا الشهر المبارك، نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من المقبولين ممن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، وقامه إيمانًا واحتسابًا، وقام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا.

والإيمان هو الذي نبدأ به ونختم، وهو مقصدنا ونحن نقرأ القرآن ونصلي وندعو، من أجل أن يتم لنا-وهو الذي يتمم للخلق مقاصدهم-مقصدنا من هذه العبادات كان الواجب علينا أن نعتني بالإيمان، فلا يقبل صيام رمضان ولا قيامه ولا قيام ليلة القدر إلا إذا تحقق الشرط، والشرط: إيمانًا واحتسابًا.

ومن السور التي تبني الإيمان وتجعله متينًا في القلب: سورة يس.

- وقد قال عنها السلف: "هي قلب القرآن"، أما حديث فلا يصح، يعني لا يصح تسميتها أو وصفها قلب القرآن من جهة النبي-صلى الله عليه وسلم-، إنما هذا من الكلام الذي تداوله السلف.

والسبب ظاهر في كونها قلب القرآن: لأن من تقاسيمها تتشعب مواضيع القرآن، وكما ذكر بعض المفسرين فقال: "من تقاسيمها تتشعّب شرايين القرآن كله، وإلى وتينها ينصبّ مجراها".

فإن فيها من الأخبار والشؤون والأمور التي تقوّي الإيمان في القلب، فبهذه السورة دلائل التوحيد مشوبة بالامتنان بواجب الشكر على النعم، مشار إلى أن الشكر لا يكون إلا بالتقوى والإحسان وترقّب الجزاء، فالشاكر تقيّ محسن ينتظر الجزاء من الله.

- وفي السورة طريق لو سلكه العبد، خرج من قلبه كل شرك، طريق لو سلكه العبد، حرّك فطرته، وعاد عدوّه الشيطان واتّبع دعاة الخير.
- في السورة تعظيم للقرآن، فهذه السورة إذًا قامت على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه:

- إثبات الرسالة والوحي، ومعجزة الوحي.
- إثبات كمال صفات الله واستحقاقه للتوحيد.
- إثبات القدر والحشر إلى الله.
- وفي ضمن هذا ترى أمرًا عجيبًا: تنقّلات لطيفة في السورة، أسئلة مثيرة يُثار ذهن السائل ويؤمر بأن يتفكّر ويتدبّر، فلذلك تصلح أن تكون هذه السورة منهجًا للتفكّر.

إذا أراد الإنسان أن يدرّب نفسه على التفكر أو يدرّب من تحت يده، فليجعل هذه السورة منهجًا بين عينيه.

هذه السورة العظيمة بدأت بالثناء على القرآن بذكر الحروف المقطّعة {يس} والقول فيها كالقول في الحروف المقطعة في أوائل السور، أنها إشارة إلى التحدّي، وأنّ المقصود أن هذا القرآن من حروف عرفتها العرب فلتأتِ بمثلها من كلمات.

ومن الناس من يدّعي أن (يس) من أسماء النبي-صلى الله عليه وسلم-، وهذا ليس صحيحًا، وربما الذين يسمون (يس) معتمدين على قول الله في سورة الصافات {سلام على آل يس} وهذا شأن آخر.

ثم أتى الثناء {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤)} فاجتمعت في مطلع السورة الأمور العظيمة:

- القسم بالقرآن، كناية عن شرف قدره وتعظيمه عند الله.
- الإشارة إلى أن النبي-صلى الله عليه وسلم-من المرسلين، وهذا جواب القسم.
- و {عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤)} هذا إشارة إلى عظمة الشريعة بعد إثبات أنه مرسل كغيره من الرسل.

ثم يأتي قوله تعالى: {تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥)} فهذا إشارة إلى أن هذا المنزل الذي هو القرآن من عند الله الذي وصفه أنه عزيز رحيم، وترى آثار عزته في أفعاله، وترى آثار رحمته في أفعاله.

لكن الناس عطّلوا عقولهم وفطرهم عن رؤية آثار عزته ورحمته، فما اعتبروا بالأمم التي سبقت، ولا اعتبروا بالعطايا التي ينعم الله بها على الخلق، فما كان منهم إلا أن عطلوا فطرهم وعقولهم.

فالمقصود أن تكون ذا نباهة وفهم، وتكون على حذر من أن تعطّل عقلك المفكّر، وفطرتك السوية، فتمرّ عليك من الأحداث، وتمرّ عليك من الأحوال ما ينفعك ويوقظك وأنت في غفلة.

ولذلك في السورة يقول الله-عزَّ وجلَّ-: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} أن هذا زمان الحسرة والتعجب. ثم بيّن سبب الحسرة والندامة.

الله-عزَّ وجلَّ-قد نبههم وأعطاهم كل طريق يوصل به إليه، لكن يا للعجب! لم ينتفعوا بهذا الطريق.

كن على حذر من أن تكون من أهل الحسرة في يوم لا ينفع فيه الندم ولا الحسرة، كن على حذر ممن يجرّك إلى هذه الحسرة، ومن الأحوال التي تجرّك إلى هذه الحسرة، فإن المتحسّرين في ذاك اليوم لا ينفعهم تحسّرهم، ولا يفيدهم شيء، فشدّة الندم بعدما يفوت الأمر ما هي إلا حرقة لا تنفع صاحبها، لكن شدّة الندم على ذنب أذنبته في الدنيا ينفعك الله به، إن كان يدفعك إلى التوبة.

ما السبب الذي يأتي بالحسرة؟ {مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠)} **السبب الذي يأتي بالحسرة**: الاستهزاء بالرسل.

والنجاة: أن تستعمل عقلك وفكرك وفطرتك فتنجو {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ}؛ بمعنى أن الإنسان عليه أن يتفكّر ويرى، تستهزؤون بأي شيء وأنتم تعلمون أن عاقبة الاستهزاء بالرسول كما مضى كانت هلاك المستهزئين! ألا تقرؤون التاريخ؟! فعدم اعتبار كل أمة بالأمم التي قبلها يثير الحسرة عليها وعلى نظائرها، وهكذا فيمن خالف سنة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-في كل

شأن من شؤونه، ولا يستفيد من التأمّل في حال من خالفوا الرسول واستهزؤوا بأوامره فهلكوا، فيعيد الناس كل زمن نفس الحالة التي مرت.

{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ}، هلكوا فهم لا يعودون، لا رجوع للدنيا، لا رجوع إلى الأهل والأحباب، وهذا يزيد الحسرة اتضاحًا، فإذن انظروا إلى هذه الحال وكونوا محترسين من الحسرة.

إذن هؤلاء لن يعودوا إلى الدنيا ماذا سيحصل لهم؟ {وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)} كلهم جميعًا سيجتمعون لدينا محضرون، أين سيجتمعون؟ سيجتمعون عند ربهم محضرين للحساب والجزاء والعقاب!

ثم تأتي الآية بعد الآية {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)} ألا تنظرون إلى الأرض الميتة وَصِفَتُها كيف أحياها الله؟ فالذي أحياها وأخرج منها حبًّا هو الذي يخرجكم من الأرض، وهو الذي يعيدكم كما كنتم، فالأرض الميتة يعني جافة ما فيها حياة ما فيها نبات، وإحياؤها خروج النبات منها، وهكذا الخلق يكونون غيّبوا تحت الأرض، أكلتهم الديدان، وذهبت بأبدانهم، ثم الله-عزَّ وجلَّ-يعيدهم مرة أخرى.

وذكر الله-عزَّ وجلَّ-من هذه الآية بالتفصيل في مسألة الإخراج مشيرًا إلى اليوم الآخر، ومشيرًا أيضًا إلى نعمه {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)} إذًا هذه إشارات إلى ما أنعم الله به على الخلق وهم لا يد لهم فيها، لا يد لهم فيما رُزقوا، فتصبح (ما) نافية في (وما عملته أيديهم)، بمعنى وما عملت أيديهم شيئًا من ذلك.

وهناك قول إن (ما) هنا موصولة كما يفهم الناس، يعني ليأكلوا من ثمر ما أخرجناه ومن ثمر ما عملته أيديهم، فتكون الإشارة إلى أي شيء؟ تكون الإشارة إلى أن الله علّم الناس كيف يسقون وكيف يتعاهدون...إلى آخره.

لكن الذي يظهر أن (ما) نافية، والمعنى أقرب أن تكون نافية والسبب أنه في سياق تعداد نعم الله-عزَّ وجلَّ-عليهم التي ليس لهم يد فيها.

{أَفَلَا يَشْكُرُونَ} إذًا الله-عزَّ وجلَّ-يستحقّ الشكر فكيف يستمرون على الكفر؟! على كفر النعمة وعلى الكفر الأكبر، وهذا دليل واضح على أن كفر النعمة مبدأ الكفر الأكبر، يعني يبدأ الكفر الأكبر بإنكار حق الله بكفر النعمة.

{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)} بعد ما ذكر إحياء الأرض وإخراج الحب والشجر وما فيها من بديع صنع الله من تأمّله بقلب صافٍ مستسلم للفطرة، وعقل صافٍ بعيد عن الفكر الباطل، سيرى عجبًا، ولابد أن يذكره بعظمة الله الصانع لهذه الأشياء بحكمته-سبحانه وتعالى-.

وهنا أمر آخر {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا} المقصود به كل ما يطلق من الذكر والأنثى سواء كان من الإنسان أو الحيوان، هذا إطلاق، ويطلق أيضًا الزوج على معنى الصنف، فالله-عزَّ وجلَّ-الذي خلق الأزواج كلها يعني الأصناف كلها {فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ}(١)، لكن أكثر ما يستخدم في الذكر والأنثى، فيظهر أن هنا أحد الإشارات أن الله خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون.

مما تنبت الأرض: يعني هذا دليل أن هذه الأرض هي مبدأ الخلق؛ لأنها الأسبق في تكوين بني آدم، وأن هذه الأبدان تقوم على ما رزقنا الله من الأرض.

(١) [سورة طه: ٥٣]

ومن أنفسهم ومما لا يعلمون: هذه إشارة إلى أسرار عظيمة موجودة في خلق أنواع الحيوان هي التي ميزت الذكر عن الأنثى، وهي التي ميزت الناس بعضهم عن بعض، وميزت أنواع الحيوانات بعضها عن بعض، فهذا كله يجعل العبد يعلم أنه كلما زاد تفكّرًا في هذه المخلوقات، ظهرت له أسرار خفية، وتبقى هناك أسرار وأسرار! وكلها إن صحّ عقل العبد زاده إيمانًا.

ونحن نرى أنه كلما زاد بُعد الناس عن الدين، كشف الله لهم-بسبب التجارب والاكتشافات-شيء من أسرار الحياة، من أسرار الخلق، يدعوهم بهذا الشيء الذي يكتشفونه إلى الإيمان. أما من سلم قلبه من اللوثات، فإنه ينتفع من هذه الاكتشافات، وأما من خالط قلبه الكفر والعناد، فإن مثل هذه الأمور لا تنفعه وهو في غاية الإصرار على ما تحمّل من اعتقادات.

فإذًا معنى هذا أن المطلوب منا أن نغذّي عقولنا بما يزيدنا إيمانًا، ويكون لنا فيه عبرة، فانظر إلى مخلوقات الله واجعلها شاهدة على عظمة الله، وزد بذلك توحيده وتعظيمه-سبحانه وتعالى-.

{وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)} وهذه الآية الجديدة انتقال إلى العوالم العلوية التي تدلّ على دقيق نظام الخلق، ابتدئ منها بنظام الليل والنهار وهذا شيء متكرر الوقوع أمام من يشاهد، والسلخ: إزالة الجلد عن الحيوان، فكيف نسلخ منه النهار؟

كأن الأصل الليل، ماذا يحصل للنهار؟ يسلخ النهار، صار المعنى الليل آية لهم، متى؟ عندما ترى النهار قد زال، فيبقى عليهم الليل، فأصبح كأن هناك تشبيه:

الليل بمنزلة جسم الحيوان، المسلوخ منه جلده، والنهار هو الجلد، يعني عندما يأتي الليل كأنه حيوان سُلخ جلده، فإذا بقي الليل إذًا بقي الجسم المسلوخ، عندما يطلع النهار هذا كأنه الجلد، من هنا نفهم أن الظلمة هي الحالة السابقة للعالم قبل خلق النور. الظلمة هي عدم النور، فالأساس الظلام، والنور هذا مثل اللباس، فقبل أن يخلق الله الكواكب النيّرة والشمس، وقبل أن تستقبلها الأرض كان كل شيء في ظلمة، فهذه آية عظيمة (حال زوال نور النهار عن الأفق، فيزول يزول النهار، يزول الضوء، فكل مكان يزول عنه الضوء يصبح فيه ظلمة، فكأن هذا النهار كأنه الجلد ينسلخ رويدا رويدا عن الجسم).

يقول الله {فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ} يعني ماذا يحصل لهم؟ يصبح الخلق في ظلمة.

من الآيات أيضًا: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} وهذا معطوف على آية الليل، فكما تفكر في الليل والنهار فكر في الشمس وجريانها، واعلم أن {ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

وهذه الآية العظيمة-آية الشمس-علينا أن نكثر من التفكّر فيها؛ لأنها من أعظم الآيات التي أشير إليها في القرآن وكُرّرت الإشارة إليها، ولنعلم كما ورد في الحديث في صحيح البخاري ومسلم:

((أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟)) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي لاَ يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ لَهَا ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا)). فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-((أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ ذَاكَ؟ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا))[١].

إذًا هذه الآية العظيمة عندما ننظر إليها لابد أن نستحضر هذا الحديث الواضح في دلالته، ما دلالة هذا الحديث؟ أن الشمس تجري حتى تنتهي إلى مستقرها، أين؟ تحت العرش، هذا متى؟ كل يوم تغرب فيه الشمس عنك تجري إلى مستقرها، فإذن أين تذهب الشمس لما تغرب؟ ما هو الجواب الذي ستقوله؟ تنتهي إلى مستقرها تحت العرش.

لاَ يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا: لأنها تشرق من نفس المكان، فما يستنكرون، وهي مأمورة، تجري لمستقرها.

((حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ لَهَا ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا)) ففي ذاك الوقت سيكون شروق الشمس من مغربها.

١() صحيح مسلم(١٥٩)

المقصود أن هذه من عقائدنا التي نحملها تجاه الشمس، والتي نلقّنها ذرارينا بنفس هذه الطريقة التي هي ((أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ)) كما قال النبي-صلى الله عليه وسلم-.

وهذا تأويل هذه الآية العظيمة {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)}.

{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)} فكما أن الشمس آية، فكذلك القمر آية عظيمة من الآيات، قدّره الله بنظام محكم، فله مقدار عجيب بها يقدّرون الناس أحوالهم، فإن الله قدّر للشمس والقمر نظام يسيرون عليه لا يتغيّر، لا يتغير بمعنى هذه الكلمة، به انتفع الناس بحساب الفصول السنوية والأشهر والأيام والليالي، فهذا أمر لابد أن يثير الذهن، لابد أن تكون مثل هذه الأمور التي تعاد وتتكرر علينا مثيرة لنا، لا ننظر لها نظر الغافلين، بل نظر المعتبرين، ندرّب أنفسنا على ذلك وندرب أبناءنا؛ لذلك نقول: "سورة يس تصلح أن تكون منهجًا للتفكّر".

{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ} له منازل ينزلها، المنازل هذه معروفة، يبتدئ ضوؤه هلالًا، يأخذ في الازدياد ليلة فليلة، ثم يأخذ في التناقص {حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} حتى عاد يعني حتى صار، كالعرجون القديم: أي شبيهًا به. صار شكله للرائي كالعرجون، ما هو العرجون؟ العود الذي تخرجه النخلة فيكون الثمر في منتهاه، وهو الذي يبقى متصلا بالنخلة، وهو المكان الذي تجتمع فيه أعواد التمر، والقديم هو البالي؛ لأنه إذا انقطع التمر منه يتقوّس تقوّسًا ويصفر ويتضاءل، فأشبه صورة ما يواجه الأرض من ضوء القمر في آخر ليالي الشهر وفي أول ليلة منها بأي شيء؟ بهذا العرجون القديم؛ فالضوء الذي يكون ليلة المحاق يعني من اليوم الثاني من الليلة الثاني من المحاق يشبه هذا. يعرف هذه الصورة تمامًا أهل النخل، ويمكن بتداول الصور تتصور العرجون القديم.

هذه الصور العجيبة التي صوّرت تحتاج منا تدبر تفكر، (كالعرجون القديم) فكر ما هو؟ ابحث عنه، تصور صورته، كل هذه قربة.

{لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)} الآن سمعت عن الليل والنهار وسمعنا عن الشمس والقمر، فهذه كلها أدلة على انفراده تعالى بالخلق والتدبير، وعلى صفاته-صفات كماله-، فانظر إلى قدرته بآية الشمس وسيرها، وانظر إلى قدرته بآية القمر وسيره، انظر إلى هذا وانتفع به، وانظر إلى دقّة سير هذا وهذا، ويزيد الأمر عبرة بأنّ سير الشمس لا يلاقي سير القمر، والقمر سيره لا يلاقي سير الشمس، ولا يمر أحدهما بطريق الثاني، فمن يمسكهما؟

في مقابل لو نظرت لهما في ليالي في صبيحة بعض الأيام يمكن أن ترى القمر بعد شروق الشمس، فترى القمر وترى الشمس، تراهم أنت في الجو مع اختلاف حجميهما، لكن أتظن أنهما متقاربين؟ أبعد ما يكونون! فالشمس في فلك بعيد، والقمر أقرب منها بعينك قد تراهم يلوحون متقاربين، وكل منهما له نظامه وله سيره، لا يمكن أن يلحق هذا هذا، ولا العكس، {كل في فلك يسبحون}.

فسبحان من خلقهم وجعلهم آية، ويا حسرة على من غفل عن هذه الآيات!

{لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} فانسلاخ النهار على الليل أمر مسخّر، فالليل لا يستطيع أن يتخلف ويسبق النهار، فهذا كله تقديرات قدرها الله-عزَّ وجلَّ-أين عنها الخلق وأين هم عن أدلتها؟

إذًا {وآية لهم الأرض الميتة}، {وآية لهم الليل} والآن نأتي لآية ثالثة:

{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)} وهذه أحد العجائب التي يعيشها الناس، يعني الله-عزَّ وجلَّ-عدّ آيات في الأرض، عدّ آيات في السماء، الآن يعدّ لنا آيات في البحر، وكل هذه الآيات تجمع بين أمرين: بين المنة والعبرة، لا تنسَ هذا.

يمتنّ الله علينا بنعمه والنعم نفسها عبرة لنا، فنحن انشغلنا عن الأمرين عن المنة وعن العبرة، نشعر أنه طبيعي الشمس تخرج، ولازم تخرج، ولا نفكر في المصالح التي تعود من وراء الشمس، ومثلها في القمر ومثلها في الليل والنهار، ومثلها في كل شيء، يعني ما نفكر أن نثني على الله بفعله في الشمس والقمر، بل يمكن أن يتداول بعضنا مشاعر كراهية الشمس مثلا لأنها محرقة! ممكن أن تأتي هذه المشاعر، وممكن هذه المشاعر تتولد عند الأبناء، فحينما نأتي نقول لأحد: تفكر في الشمس، يقول: لا أجد في قلبي

شعور لها إلا البغض، وهذا طبعا مما يدلّ على فساد القلب! غفلة وفوقها غفلة وفوقها غفلة! نعوذ بالله من حال أهل الغفلة.

الآن الآية التي نتأملها هي آية الفلك، وهذه آية عظيمة اشتهرت حتى كانت كالمشاهدة عند الناس، المقصود أن إلهام الله لنوح-عليه السلام-صنع السفينة كان أمر معروف عند الناس يتداولونه ويتناقلونه.

{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)} فتسخير الفلك أنها تسير على الماء، وتسخير الماء لتطفو عليه دون أن تغرق هذه آية عظيمة بنفسها، وأيضا من المنّة هنا أن نذكر الناس بإلهام نوح لصناعة الفلك وأنهم حُملوا عليه وبقوا بعده.

إذًا الآية هنا صُنع الفلك فحُملت فيه الذُّرِّيَّات وحصلت لهم بذلك النجاة {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)} يعني أنجيناكم من الغرق، لسنا نحن نفسنا! نقول هذه الذرية وهو نسل الإنسان، والفلك المشحون هذا الفلك الذي عُهد وعُرف في قصة الطوفان.

فامتنّ الله علينا بنفس الفلك، وامتنّ علينا بالنجاة، فإن الذراري نجت بنجاة وصول الخلق بعدما أغرق الله كل أهل الأرض إلا القليل الذين آمنوا.

كما أتى في سورة الحاقة: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)} يتذكرها الخلق.

المقصد أن هذه المنة العظيمة على الخلق أن يتناقلونها ويحكي بعضهم بعضا ويذكّر بعضهم بعضا بنعمة الله.

{وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)} يعني هذه آية غير آية البحر، بمعنى أن هنا تذكير بخلق الإبل الصالحة للأسفار، فكانت الأولى الإلهام بصنع الفلك من حيث الحكمة العظيمة في الإلهام وتسخير البحر والحفاظ على النوع الإنساني، وهنا يأتي أمر آخر لا يد للإنسان فيه أبدا وهو اتخاذ الرواحل، يركبونها فتقطع بهم الرمال، فالله-عزَّ وجلَّ-جعل الفلك صالحًا لمخر البحار، وجعل الرواحل قادرة على قطع الرمال، ومما اشتهر أن العرب كانت تقول عن الرواحل: سفائن البر، فهي كالسفينة في البر، فهذه

من النعم التي نتذكرها، أن الله حملنا في الفلك، حملنا على هذه الدواب، حملنا على ما نحمل عليه اليوم، وهو-سبحانه وتعالى-الممتنّ على خلقه بذلك كما ورد في سورة النحل، فمن نظر إلى منته العظيمة، كان الواجب عليه الشكر وليس الكفر، وكان الواجب عليه الإيمان وليس الإعراض عن طريقه-سبحانه وتعالى-.

{وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣)} يعني حمل الذرية في الفلك، وامتنّ على الخلق بهذه الفلك التي تجري، فلو شاء لأغرقهم جميعا وذهبوا، فلا يجدون صريخا يصرخون فيغيثهم ولا أحد ينقذهم من أمر الله.

{إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)} إذًا هذه هي الحقيقة أن الله-عزَّ وجلَّ-مدّ في أعمار الخلق وأعطاهم من أجل أن يكونوا أهلا لطاعته، وهذا من آثار رحمته {إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)}، فلا تكن ممن تمتع إلى حين وترك النعيم المقيم، وامتثل الأمر بالتفكر، وانتفع مما نشره الله حولك من آيات.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)} تنتهي القضية عندهم بأي شيء؟ بأنهم لا ينتفعون بالآيات الدالة على وحدانية الله، لا ينتفعون بالقرآن والموعظة والتذكير، لا ينتفعون بما حلّ للأمم قبلهم، وهكذا نجدهم أنه يمرّ بين أيديهم أحوال الأمم في الدنيا، ومن خلفهم من سبقهم في التاريخ ولا ينتفعون.

{وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)} فما أسوأ هذه الحال ويا حسرة على هؤلاء العباد! كم أحسن الله إليهم بإظهار الآيات، وكم أساؤوا إلى أنفسهم بالإعراض! وأعظم ما فيهم من سوء أنهم يحكمون عقولهم على خبر ربهم، فنسمع هذه الآية الأخيرة في السياق بالنسبة لنا ونفهم هذه الدلالة.

يعني الآن آيات تُعرض عليهم يتركونها، يتركونها إلى أي شيء؟ إلى عقولهم! وانظر إلى مناقشتهم لعقلهم:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} هذه أحد الأوامر والطلبات التي أمروا بها {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ} يعني انظري إلى عقولهم يفكرون بعقولهم يحكمونها في الشرع {إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧)}.

المؤمنين يقولون لهم: {أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} الله الذي رزقكم، فيكون ردّهم ردّ من استعمل عقله في غير مكانه، فكأنهم يقولون: الله رزاق، فنطعم من لو يشاء الله أطعمه! إذا هذا رزق الله فلماذا لا يرزقهم؟! لو شاء الله لأطعمكم كما أطعمنا! فهم يضعون صفات الله في الموطن الذي يريدونه بعقولهم، نحن ربنا أطعمنا، تقولون إن ربنا أطعمنا نحن، إذًا يطعمهم هم أيضًا، ليس مسؤوليتنا أن نطعمهم! وينسون أن الدنيا بنيت على البلاء، فهؤلاء اختبروا بهؤلاء، وأرزاق هؤلاء وهؤلاء من الله، لكن أنت يا صاحب المال ابتليت بمالك، يختبرك الله، تمتثل في مالك ما أمرك الله أو لا تمتثل؟

المقصد تركوا أن ينمّوا عقولهم بالدين والإسلام واليقين والآيات المتلوة والآيات المرئية وجعلوا عقولهم تحكم الأخبار التي تأتيهم، {أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} يقولون: رزقنا الله إذًا يرزقهم أيضًا!

فما أكثر عيب هذه العقول! ما أعظم عيبها، تستعمل الخبر الذي أخبرها الله به والأمر الذي أمرها الله به فيما يوافق الهوى، نعوذ بالله من الهوى.

هذا ما تيسّر ذكره من هذه السورة العظيمة، ولم ينتهِ منها المقصد وتحتاج إلى تقليب وفهم أكثر، نسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يحقّق لنا ذلك في أقرب وقت.

اللقاء الرابع والعشرون

تفسير الآيات ٣٠-٣٦ من سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده-سبحانه وتعالى-وهو أهل للثناء والحمد، ونستغفره وهو أهلٌ للتقوى وأهلٌ للمغفرة، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، نعوذ بالله أن نقترف على أنفسنا ما يحرمنا جوده وعطاؤه، نعوذ بالله أن نخطئ ونرتكب ما حرمه علينا وهو الحليم الرحيم!

يُنبّه عباده ويأمرهم بالاستقامة على دينه، فإذا زاغوا أو نسوا أو ضلّوا عن الطريق، أحسن إليهم بأن يحرمهم شيئًا من عطاياه؛ ليتذكّروا نعمته فلا يعاملونها بالبطر، ولا يظنّون أنها تحت تصرّفهم متى شاؤوا فعلوا، متى شاؤوا أطاعوا، متى شاؤوا أحسنوا، إنما هو الممتنّ صاحب الفضل أولًا بأن حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وهو صاحب المنّ لما يسّر لنا سُبُل الطاعات، وهو صاحب المنّ لما علّمنا عن نفسه خاصة علّمنا عن القرآن، وهو صاحب المنّ لما يسّر سُبُل التعليم، وهو صاحب المنّ لما تفضّل علينا بأبواب الطاعات كلها، فله الحمد وله الشكر، خيره إلينا نازل، وشرّنا إليه صاعد!

كم عاملنا بستره ورحمته وحلمه، وأدّبنا ألطف ما يكون من التأديب، فلك الحمد على العطاء والمنة، ولك الحمد على التربية والرحمة، على كل حالنا نحمدك، فلا يأتي من ربّ عظيم رحيم إلا الرحمة.

وقد قيل لأعرابي: إنك ستموت، فقال: وإلى أين أذهب؟ قالوا له: إلى الله، قال: وهل رأيت منه إلا خيرًا، فبِمَ تخوفوني؟!

ونحن لم نرَ منه إلا خيرًا، نشهد بذلك، ونستعيذ مرات ومرات من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا.

وإذا سمعنا في القرآن وصف هؤلاء المستقيمين على دين الله كما في آيات سورة فُصّلت {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}(١) سنعرف ما معنى هذه الحال التي يجب على العبد أن يكون عليها.

(١) [سورة فصلت ٣٠]

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} الملائكة أولياء أهل الإيمان فمتى يقولون لهم: {أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ} متى يقولون لهم {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}؟

متى يبشرونهم أن في الجنة {مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ}؟

هذا ما نريد أن نعرفه من هذه الآيات ونعرف سلوك هذا الذي استقام.

وتأتي الآيات فنُخبر فيها عن أحسن الناس قولًا، الذي دعا وعمل صالحًا وقال: إنني من المسلمين، فنسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن نكون نحن من أهل هذه الآيات، ممن قال: (ربي الله واستقام)، وممن (دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين)، وممن (إذا نزغه الشيطان نزع استعاذ بالله الذي وصفه أنه سميع عليم).

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)}[1].

نقرأ ما يتيسّر لنا من معاني هذه الآيات العظيمة ونحن راجون من الله أن يكون هذا العلم في قلوبنا وليس في أسماعنا فقط، إنما تكون أسماعنا وسيلة للدخول إلى قلوبنا.

(١) [سورة فصلت ٣٠-٣٦]

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

"يخبر تعالى عن أوليائه."

وما أعظم هذه الكلمة أن تكون وليًّا من أولياء الله، أولياء الله الذين يحبّهم الله، أولياء الله قوم قَبِلهم الله، أولياء الله قوم رفعهم الله عنده، ما صفة أوليائه؟

"وفي ضمن ذلك تنشيطهم والحثّ على الاقتداء بهم."

يعني يخبر الله-عزَّ وجلَّ-عن أوليائه من أجل أن ينشّطهم على البقاء على حالهم، وينشّط غيرهم للاقتداء بهم.

من هم هؤلاء الأولياء؟

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}.

ما حالهم؟

"اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله، واستسلموا لأمره."

إذًا نحن هنا مع اسم عظيم من أسمائه: (**الرب**) الذي أوجد وأعدّ وأمدّ، والذي لا زال يربّي عباده، يربيهم بأنواع النعم التي تنزل على أبدانهم وعلى قلوبهم، فأوّل الأمر هؤلاء لهم وصف غاية في الأهمية، أنهم يقولون: ربّنا الله، فمعنى ذلك أنّ آثار التوحيد ظاهرة عليهم، ينظرون إلى كل شيء بعين من يعرف ربه، فإنّ مَن قال: "ربي الله" لابدّ إن كان صادقًا أن يرضى بالله ربًّا، يرضى به مدّبرًا مُنْعمًا معطيًا مانعًا، يقلّبه في أحوال الحياة، الرضى علامة الاستسلام للربوبية.

فها نحن نقول في أذكارنا: "رضيت بالله ربًّا"؛ أي رضيت به مربّيًا، يعطي ويمنع، يؤدب ويربي، يرفع ويخفض، بيده ملكوت كل شيء يدبّره على خير حال، وهو أحسن الحاكمين وخير المعطين، فعلى العباد الصادقين الرضا به.

فإذا رضوا بربوبيته، أي اعترفوا بقلوبهم ونطقوا بألسنتهم وقع الرضا، (ربنا الله) الذي له كمال الصفات، فإذا ربّاني، أعطاني أو منعني، رفعني أو خفضني، وهبني أو حرمني، هذا عند الخلق، لكن في قلبي أنا تام الرضا. عند الخلق هذا خفض أو رفع، عند الخلق اسمه عطاء أو اسمه حرمان، لكن عند من رضي بالله كله يشرح الصدر، كله يجعل العبد في حال من الرضا؛ لأن مقصد هذا العبد ما وراء هذه الدنيا.

ربنا الله، نعترف بذلك وننطق ونرضى ونستسلم لأمره، نستسلم، فمن استسلم، قام في كل حال بالوظيفة الواجبة عليه، فإذا نزل البلاء فتش في نفسه عن ذنبه فتاب واستغفر وصبر واحتسب، وإذا جاء العطاء نسب النعمة لله وشكر وأثنى على الله في كل مجلس ومحفل.

لا تراه إذا أعطي يشكر أحدًا غير الله، ولا تراه إذا مُنع ينسب المنع لغير الله، بل عينه عين الرضى عن الله، إذا أُعطي نسب وشكر، وإذا مُنع فتَّش وحرَّر حاله وصبر، وفي ذلك كله ينتظر رضى الله.

إنّ العبد الذي يقول ربنا الله يعلم أن الله يقلبه في الأحوال وينظر إليه، (هل أنت عن الله راض؟) أعطاك أو منعك، رفعك أو خفضك، إن الخلق إنما هم أسباب يسخّرهم الله أو يسلّطهم الله، فمن أراد لنفسه الفلاح والصلاح، فمن الأرض للسماء، ليس لقلبك قبلة إلا الله، هو صمدك وركنك الشديد، وهو العليم الخبير.

فكن في الأرض واحدًا لواحد في السماء

ودع عنك أهل الأرض إنّما هم بلايا في الطريق

إن أردت فاجعلهم ممهدين لك الطريق إلى الله، فالذي يقول: (ربنا الله) عبد صدق في توحيده وما أصعب هذا الاختبار وما أعظمه وما أقلّ المتنبهين له! فإن الناس ما أن يُحرموا إلا يلتفتون للأسباب، وما أن يعطوا إلا يزيد تعلقهم بالأسباب، وهذا كله زيادة بلاء على العبد أن ينقطع بالأسباب عن ربّ الأسباب.

إنّ الأسباب من خلق الله أمرنا أن نتعامل معها كما يرضى هو-سبحانه وتعالى-، فلا تعامل الأسباب بغير ما أمرك به ربّ الأسباب.

{وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)}[1] أتبع على ما أمره الله، من أعطاه الأسباب؟ الله، من أمره أن يأخذ بالأسباب؟ الله، كيف يأخذ بالأسباب؟ كما أمره الله، لا تجعل الأسباب حاجزًا لك عن ربها.

على كل حال موضوع الرضا عن الله من أعظم المواضيع خطورة وصعوبة، وهو ما يضيّق أنفاسنا عندما نسمع السفهاء يتكلمون عن أفعال ربنا! وهو الذي يضيّق علينا الحياة حين نرى من اتخذوا دينه لهوا ولعبوا يتكلمون عن الله العظيم ونرى آثار ستره وحلمه عليهم وعلينا! فاللهمّ لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

---

(١) [سورة الكهف ٨٤- ٨٥].

إن وسائل الإعلام ضجت اليوم كما ضجت بالأمس بالتعدي على الله الملك العظيم الرب الكريم، ضجت بتعظيم غير الله، فما لنا إلا الشكوى إلى الله، ونستعيذ بالله من أن ينزل علينا سخطه أو يقع علينا ما يستحقّه هؤلاء، لكننا نتوسّل إلى الله أن يعاملنا بفضله.

إذًا هذا أول وصف لأوليائه: **"يقولون ربنا الله"**

{ثم استقاموا}

فإن الذي يقول: (ربي هو الله) يطلب رضاه، يقطع أنفاسه سعيًا وراء رضاه، إليه يسعى ويحفد، فمن صدق في أن يقول::ربي الله"، أورثه ذلك استقامة على دين الله.

"ثم استقاموا على الصراط المستقيم علمًا وعملًا."

معنى ذلك أن الذي يقول: "ربي الله" يحبب إلى فؤاده العلم، يحب أن يتنوّر في كل شيء، يحب أن يجيب سؤال: (هل هذا الذي أنا فيه يرضي الله؟ هل هذا الذي أعمله يرضي الله؟) فتراه يتعلم ويتعلم ولا يشبع من العلم، ويعمل بما تعلّم لأنه يخشى أن يتعلم علمًا لا يعمل به، يخشى من النفاق، فإنّ بين العلم والعمل فجوة إذا وجدت لا يسدّها إلا النفاق!

لكن هذا المستقيم يبذل جهده في العلم ثم يبذل جهده في العمل، فيعمل بما يستطيع من العلم، إن صدق في إرادة العمل، الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فإننا مختلفون في قدراتنا وفي عطايا ربنا لنا، وكل واحد منا فتح له باب غير الآخر، فأنت تعلّم ما يرضي الله، تعلم عن الله وما يرضي الله واستقم على دين الله واجمع قلبك على إرادة رضاه، ويوفقك الله لما يريد من الأعمال الصالحة.

فالمقصود: أين هو قلبك؟

- هل هو مشتاق لقيام ليلة القدر؟ أم أنه كسلان يريد أن تنتهي الأيام وتنطوي؟!
- هل هو فرح بالفرصة؟ أم أنه غير معتن بها؟!

إن الذين استقاموا على دين الله أهل فرح بمواسم الطاعة أهل بهجة بها، أهل بهجة بكل باب خير.

إن الذين استقاموا على دين الله ممن سلف، كانوا إذا طرق الطارق عليهم يطلبهم يرحبون به ويأنسون.

إنهم يعلمون أن هذا باب فتحه الله، فكم بين هؤلاء وهؤلاء وكم بين الدعوى والصدق.

فنرجو من الله وهو الذي يتفضّل على عباده بأن يدلّهم على الصراط المستقيم ويشرح صدورهم إليه، هو الذي يحبّب الإيمان ويزينه في قلوب الخلق، نسأله أن يحبب إلينا وإلى ذرارينا الإيمان ويزينه في قلوبنا.

"فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة."

كيف تأتيهم البشرى؟

"{تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ} الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار."

إذًا هذا اللقاء وهذا الكلام الذي ستقوله الملائكة مبشرة، هذا عند الموت، إن الملائكة تقول لروح المؤمن: (اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمّرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان).

فهذه من بشراهم، فيقولون: لا تخافوا {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا} لا تخافوا مما يستقبلكم من أمر، إنهم مقبلون على أمر عظيم، سواء كان هذا في الاحتضار، أو كما ورد في كلام ابن عباس أن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم، يوم أن تلتقي الأرواح بالأبدان، فيصبحون في مكان غير المكان، ويصبح بصرهم حديد، ويرون ما لم يكونوا يرونه من قبل! يرون الملائكة، ويرون الجن، ويرون أمرًا مهولًا عظيمًا، فذاك اليوم حقيق فيه الفزع! لكن {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ} فتطمئنهم وتؤمّنهم في لحظة فزع عظيمة.

فقد ورد أنّ العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره يتلقّاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان له: لا تخف ولا تحزن!

فالمعنى أنه يؤمَّن خوفه وتقرّ عينه، فما عظيمة يخشاها الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرّة عين لما هداه الله ولما كان يعمل في الدنيا.

فإذًا المعنى أنّهم يُبشّرونهم عند موتهم وفي قبرهم وحين يُبعثون، ألا تخافوا ما يستقبل من أمركم، ولا تحزنوا على ما مضى، فإنّ لحظة سكرة الموت لحظة قد يتخبّط الشيطان فيها الإنسان، نعوذ بالله أن يتخبّطنا الشيطان في حياتنا ولا عند مماتنا، فربّما خوفه مما سيستقبل وربما حزّنه على ما يترك، وهذا ممكن أن يكون في وقت الموت وممكن أن يكون قبله، فكثير من الناس إذا ذكرت له الموت تحسّر على بنيه وعلى ما سيتركه وراءه، فقل له: "لا تخف مما ستستقبل ولا تحزن على ما تترك، إن أحسنت في عبادة الله، فلا خوف عليك فيما تستقبله، ولا تحزن على ما تتركه فهو في حفظ الله ورعايته".

ألسنا نقرأ في سورة الكهف كيف حفظ الله أبناء الصالحين؟ فكن أنت على صلاح والذي خلقهم هو يربيهم ويتولاهم.

"فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل، {وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولًا.

إذًا معنى ذلك أنهم يُبشّرون بالجنة، وهذا من تمام رحمة الله بعباده، أن يُبشَّروا في موطن الخوف والفزع بِرَبٍّ راضٍ غير غضبان، تقول الملائكة: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، كيف يكونون أولياؤنا في الحياة الدنيا؟

الملائكة الآن تقول للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياؤكم في الحياة الدنيا، ما معنى ذلك؟ أي كنا قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله.

في الدنيا ماذا يفعلون؟ **يقول الشيخ:**

"يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم.

- **ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم.**
- **ويدعون الله لهم."**

سبحان الله! كما أنّ حملة العرش يستغفرون للذين آمنوا، إنّه لا يهلك على الله إلا هالك، لمة تلمّ قلبك من هذا الملك يعدك بالخير، يشير إليك إلى الخير ويحثك عليه ويزينه لك، ويرهبك من الشر ويقبحه في قلبك.

إن هؤلاء الملائكة كما يقول الشيخ:

"ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط"

فإذًا هم في الدنيا قُرَناء يسدِّدون ويحفظون، وكذلك في القبر يؤنِّسون من الوَحْشة، وعند النفخ في الصور، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط.

"وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم!

ويدخلون عليهم من كل باب {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} ويقولون لهم أيضا: {وَلَكُمْ فِيهَا} أي: في الجنة {مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُم} قد أعدّ وهيئ.

أي أن هذه أقوال:

الأول: ألا تخافوا ولا تحزنوا.

والثاني: وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.

الثالث: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا والآخرة.

والرابع: ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم، قد أُعدّ وهيّء.

والخامس: ولكم فيها ما تدعون.

"{وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر."

هذا كله نزلًا من غفور رحيم.

"{ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، نُزُلٌ وضيافة".

ضيافة عند رب العالمين، وعطاء وإنعام من غفور للذنوب، رحيم رؤوف، غفر وستر ورحم ولطف بعباده المؤمنين فأوصلهم إلى تلك الدار وهم سالمين.

"{مِنْ غَفُورٍ} غفر لكم السيئات، {رَحِيمٌ} حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم. فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته، أنالكم المطلوب.

فنسأل الله أن يوفقنا فيما بقي من رمضان لأعمال صالحة ونتوسل إليه وليس لنا وسيلة إلا الفقر إليه أن يقبل منا أعمالنا ويغفر لنا ذنوبنا، يغفر لنا ما سلف وكان، ويرحم ضعفنا وفقرنا، إنه جواد كريم، رب رحيم، ما رأينا منه إلا كل خير، رأينا آثار ألطافه بنا، فالطف بنا وبالمسلمين يا رب العالمين!

ثم انتقل السياق إلى قوله تعالى:

"{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}

هذا استفهام بمعنى النفي المتقرِّر أي: لا أحد أحسن قولا. أي: كلامًا وطريقة، وحالة {مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ}"

ما هذه الحال؟ ما هي أحسن حال يرضاها الله؟ أحسن حال يرضاها الله هو حال من دعا إلى الله.

كيف يدعو إلى الله؟

"بتعليم الجاهلين.

معناه يجب أن يكون هو متعلِّم.

- **ووعظ الغافلين والمعرضين.**

إذًا يعلّم جاهلًا، يوعظ غافلًا أو معرضًا.

- **ومجادلة المبطلين"**

إذًا هذه ثلاثة أمور، قد تُجمع لشخص وقد لا تُجمع وهي:

١. جاهل يعلمه.
٢. غافل أو معرض يعظه.
٣. مجادل بالباطل يجادله (مجادلة المجادل).

كل هؤلاء:

"بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها

بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، كل هؤلاء هذا الذي نعلمهم إياه.

والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن".

إذًا هناك ثلاثة أمور:

١. نأمرهم بعبادة الله، عبدوا الله.
٢. نحثهم ونرغبهم في ذلك، الحمد لله اجتمعوا، عبدوا، فعلوا.
٣. نحسّن، نطلب منهم التحسين.

نفترض أنك تصلي في مكان، فانتهى الفرض، صلوا العشاء، فما أن انتهت صلاة العشاء إلا تكلم الناس، مع أن السنَّة في مثل هذا ألا يتكلم الإنسان إلا بعد انتهاء أذكار ما بعد الصلاة، هم أحسنوا بأنهم صلوا، أحسنوا بأنهم ذكروا، لكن كونهم تركوا أن يحبسوا كلامهم إلى بعد الذكر هذا يحتاج إلى تحسين.

فأنت قدّر الأمور بقدرها، أول الأمر نأمرهم بجميع العبادات، الأمر الثاني: نحثهم عليها ونرغبهم فيها، الأمر الثالث: نحسّنها، هذا في الأوامر.

أما في النواهي فيكون بالزجر عنها.

"والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه،

نمنعهم ونقبّحه.

خصوصًا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه،

أصل دين الإسلام المقصود به التوحيد.

ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر."

إذًا هذا في فروع الدين، وأهم شيء في أصوله ألا وهو **الدعوة إلى التوحيد**، فكم من غافل عن هذا الأمر العظيم، كم من غافل عن الدعوة إلى التوحيد، اعتنى بأمور يمكن تعويضها إذا أحسن الإنسان في توحيده، فتأتي الغفلة عن أمر غاية في الأهمية ويترك لما هو أقل منه أهمية.

"ومن الدعوة إلى الله، تحبيبه إلى عباده، بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله."

إذًا من الدعوة إلى الله تحبيبه-سبحانه وتعالى-إلى عباده، تحبيب الله العظيم ربّ العرش الكريم، كامل الصفات، حبِّب الخلق في الله، كلِّمهم عن الله، أحسِن إلى نفسك بتحبيب الخلق في الله.

"بذكر تفاصيل نعمه"

ما أعظم نعمه! اجتمع معهم وذكِّرهم بالتفاصيل من نعمائه، اذكر لهم سعة جوده، اذكر لهم كمال رحمته، اذكر لهم أوصاف كماله ونعوت جلاله، وهذا يستلزم من العبد أن يكون هو صادق في حب الله، هو مجتهد في معرفة الله، هو متفكّر متدبّر في آلائه وجلاله، أكثر من التفكير في أسمائه وصفاته، أنت يا داعي إلى الله أكثر من التفكير في أسمائه وصفاته، قلِّب أحوالك وأحوال من حولك، انظر إلى سِتْره، سَتر القبيح وأظهر الجميل، شرَّع لنا من الشرائع العظيمة التي بها ترتاح النفوس وتهدأ القلوب وتصل إلى مقصدها.

أنت أيها الداعي قلِّب معرفتك لله، سيجري على لسانك هذه المعرفة أردت أو لم ترد!

ما أعظم هذا العبد الذي لسانه كثير الثناء على الله يُحبِّب عباد الله في الله! إنها وظيفة شريفة عظيمة في مكانها لمن أحسن الانتفاع من ذلك. ونقول والله هو الشهيد أنه لا ألذّ من الكلام عن الله، لكن أنت تميّز نفسك إن كنت صادقا أو كاذبًا، فمن صدق، جرى على لسانه الخير، أجراه ربّ الأرباب على لسان أوليائه، نعمة عظيمة الدعوة إلى الله، منّة كريمة منه سبحانه.

"ومن الدعوة إلى الله، الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنَّة رسوله، والحث على ذلك، بكل طريق موصل إليه"

رغّب الناس في اقتباس العلم، حبّبهم لعلم الشرع، لا تهوّنه في نفوسهم وتُعظّم لهم علوم الدنيا! إنّ علوم الدنيا تابعة للعلم عن الله، تابعة لعلم الكتاب والسنَّة.

إذًا إذا علّمت الناس وحببتهم في الله انتقل إلى أمر مهم، وهو الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنَّة رسول الله، اعتنِ أن يكون الكتاب والسنَّة هما مصدرا العلم لك، وأنت دورك يا من تدعو إلى الله أن تجعل الناس يرغبون في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنَّة رسوله. والمعنى: لا تضع بين الناس وبين القرآن حواجز، لا تضع بين الناس وبين سنَّة الرسول-صلى الله عليه وسلم-حواجز.

إنما سهل عليهم طريق الوصول إليه، فإنّ ما يميّز هذا الدِّين أنك تأخذه برفق وتكون ربانيًّا تعلِّم الناس صغار العلم قبل كباره، لكن من مصدره، مِن قال الله وقال رسوله-صلى الله عليه وسلم-.

إذًا من الدعوة الترغيب في اقتباس العلم والهدى والحث على ذلك، تحبّبهم في العلم بكل طريق موصل إليه، فمن كان من أهل هذه الآية، تراه يحبّب وييسّر للناس طلب العلم، ويحثّ على ذلك، ومن نعم الله-عزَّ وجلَّ-على الخلق أن جعل العلم وتعليمه نوعًا من أنواع الإنفاق، فإنّك إذا علّمت كأنك تنفق، وجعل من أنواع الإنفاق الإنفاق على العلم، فهذا كله من رحمة الله بنا، إن تعلّمت وعلّمت كنت منفقًا للعلم، وإن عسر عليك العلم-أن تتعلّم وتعلّم-وكنت صاحب مال، فكن ممن خدم الدين والدعوة إلى الله بمالك، فأنفق على طلبة العلم تعلمهم، أنفق على أماكن العلم، أوقف عليها أوقافًا ينتشر بها العلم، والله الغني وأنتم الفقراء، ولا يظن أحد أن الله بحاجة أحد، فهو تامّ الغنى، يعطي خلقه لكنه يختبرهم بالعطاء والمنع.

على كل حال هذا الباب العظيم-باب التعليم-من أعظم أبواب الدعوة إلى الله، بل هو الباب الذي يولج منه إلى الدعوة إلى الله، يعني أنت لا تستطيع أن تدعو إلا إذا ولجت باب العلم، لكن نقول: تستطيع أن تدعو بأن تنفق على طلب العلم يتعلمون فيذهبون إلى ديارهم فيعلّمون، وهذا من نعم الله.

"ومن ذلك:-من الدعوة-الحثّ على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين".

إذًا بدأنا أول الأمر الدعوة تكون بالدعوة إلى التوحيد، وإذا ولجت باب التوحيد ادخل في تفاصيله فحبب الله-عزَّ وجلَّ-إلى خلقه بأن تذكر تفاصيل نعمائه، تقدّم أكثر من ذلك فحبّب إليهم العلم ويسّره عليهم وأنشئ له دورًا وعلّم له معلّمين وأنفق عليهم، تقدّم أكثر اغرس فيهم الأخلاق وعلّمهم مكارمها وابذل جهدك أن يكون هذا كله خالصًا لله، بمعنى أن تعلمهم الأخلاق من أجل طاعة الله وليس من أجل المجتمع المدني، وإنما قربة إلى الله، ومُرهم

بصلة الأرحام وببرّ الوالدين، إذًا الحمد لله الأمر في غاية الوضوح، تعلّم أصول الدين وفروعه، علّم التوحيد، علّم أسماء الله-عزَّ وجلَّ-وصفاته، علّمهم أصول الدين وفروعه ومكارم الأخلاق.

"ومن ذلك: الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم، والعوارض، والمصائب، بما يناسب ذلك الحال."

فإذا أتى رمضان كُن مِن أحسن الناس قولًا، فعِظهم في هذا الشهر المبارك، تأتي العشر الأخيرة، فعِظهم لينتبهوا لأوقاتهم وأعمالهم، يأتي الحج عِظهم، تأتي الأشهر الحرم عِظهم، أو تكون هناك عوارض، الناس تخطّفتهم آراء، ابتعدوا عن دين الله، أتاهم فكر أو طرأت عليهم مسائل، كل هذا ماذا نفعل به؟ كل هذا أنت لك فيه كلمة ووعظ إن كان الأمر واضحًا، أما إن كان فيه فتنة واختلاط فلا تتقدّم في الفتنة، بل أخمدوا ذكركم وأكثروا من ذكر ربكم.

إن الفتن إذا عرضت للخلق، على الخلق أن يكونوا أحلاس بيوتهم، أحلاس بيوتهم أي كالمتاع البالي.

أخمدوا من ذكر الفتن وأكثروا من ذكر ربكم، ((عبادة في الهرج كهجرة إلي))[1].

"إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفراده، مما تشمله الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: {وَعَمِلَ صَالِحًا} أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح، الذي يُرْضِي ربه.

فهذا عبد جمع بين الدعوة إلى الله وبين العمل، هو يعمل، يسارع لامتثال أمر الله.

"{وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة، تمامها للصديقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم"

إذًا إذا تمت للإنسان هذه المرتبة فهو من الصديقين، ما حاله؟ كمل نفسه بالعمل الصالح وكمّل غيره.

"وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل،-ومن هنا نرى الضد:-**كما أنّ مِن أشر الناس، قولًا، من كان من دعاة الضالين السالكين لسبله."**

من أشر الناس قولًا عكس من أحسن الناس قولًا (من دعا للضلال وسلك هو سبيله).

---

(١) صححه الألباني(٣٩٧٤)

"وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، اللتين ارتفعت إحداهما إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى، إلى أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلا الله"

فإذًا الكمال للصديقين، وتام النقص لهؤلاء الأشرار الذين تولوا كبر الدعوة إلى الشر.

"وكلها معمورة بالخلق {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}"

يعني في كل مرتبة هناك خلق، في كل مرتبة تجمع بين الخيرية إذا كانت مرتبة الخيرية تجمع بين الدعوة والعمل، أو مرتبة الشر فتجمع بين الشر في النفس والدعوة إليه، فهي معمورة بالخلق.

"يقول تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ} أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات–بشرط–**لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه"**

في نفس الإنسان يفعل المعصية أو الطاعة لا يستويان هذان الأمران أبدا،

"ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم"

وفي غيرك أيضًا لا يستوي أن تحسن أو أن تسيء، لا تستوي الكلمة الطيبة والكلمة السيئة.

"لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}"

إذًا الإحسان لا في ذاته ولا في وصفه ولا في جزائه يستوي مع الإساءة.

"ثم أمَر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك"

الآن ليس فقط أن تبتدئ الإحسان لقوم لم يقابلوك بإساءة، الآن مَن يسيء إليك.

"فقال: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك، كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم"

يحصل بينهم ما يحصل من عوارض الدنيا وتدخّل الشيطان، فأنت ادفع بالتي هي أحسن.

"إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فَصِلْهُ، وإن ظلمك، فاعف عنه، وإن تكلم فيك، غائبًا أو حاضرًا، فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين. وإن هجرك، وترك خطابك، فَطيِّبْ له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة. {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} أي: كأنه قريب شفيق."

فهذا يكون بأمر الله بعد أن يختبر الله صدقك وصبرك، ومثل هذا لا يكون فجأة، إنما يكون مع الأيام، فإن الإنسان يختبر إن كان صادقًا في صبره على أمْر الله.

"{وَمَا يُلَقَّاهَا} أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا} نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان؟.

١. فإذا صبّر الإنسان نفسه.

٢. وامتثل أمر ربه.

٣. وعرف جزيل الثواب.

٤. وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا يفيده شيئًا، ولا يزيد العداوة إلا شدة.

٥. وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه.

هان عليه الأمر، وفعل ذلك، متلذذًا مستحليًا له."

أول عمل: يصبرها، ثانيا: يمتثل أمر ربه، ثالثا: يرغب نفسه بمعرفة جزيل الثواب، الرابع: يرى أثر العداوة لو استمرت ما الفائدة في الدنيا؟ الأمر الخامس: أن يعلم أن إحسانه إليه ليس بواضع قدره أهم شيء قدرك عند الله، إذا اجتمعت لك هذه الخمسة وعلمت أن من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك، متلذذًا مستحليًا له. يعني تنظر وتقول: سأخفض لك الجناح وأنتظر أن يرفعني الله.

"{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق."

إذًا معنى ذلك أن مكارم الأخلاق تتحصّل مع قوة التوحيد والإيمان، فليس هناك مكارم أخلاق بلا إيمان، فإن كان الإنسان مؤمنا كان الإيمان دافعا له لطلب المنزلة عند الله، ومن طلب المنزلة عند الله رفعه الله، وإنما نفوسنا هي التي تضعنا وتجعلنا نخلد إلى الأرض، فنعوذ بالله من الخلود إلى الأرض، ونعوذ بالله من نزغات الشيطان؛ ولذلك أتت الآية بعدها: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)}.

والمعنى أن عندك نوعين من المشاكل في الحياة، نوعين من الأعداء:

١. إنسيّ يقابلكم بالإساءة.
٢. وجني وهو الذي ينزغ في قلبك نزغًا.

فأما الإنسيّ فادفع بالتي هي أحسن، وأما الجنيّ فاستغذ بالله، احتمي، اعبد الله بالاستعاذة، والاستعاذة عبادة عظيمة قد غُفل عنها، فنعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

نحمد الله على ما يسّر، ونسأله-سبحانه وتعالى-أن يحفظ علينا نعمه، وأن يجعل أسباب التواصل هذه مباركة تنفعنا. اللهم آمين.

اللقاء الخامس والعشرون

تفسير الآيات ١٣-١٦ من سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

من المِنن العظيمة على الخلق التي لا تفوقها منّة ولا تقارنها عطية: أنّ الله-عزَّ وجلَّ-بعث النبي-صلى الله عليه وسلم-، وأنزل الكتاب، وشرع الشرع.

- فما هي عقيدتُنا في هذا الشرع؟
- كيف نصل إلى امتثال الأمر؟
- ماذا نفعل من أجل أن نصل إلى رضا الله-عزّ وجلّ-؟

هذا إن شاء الله يكون موضوعنا في الآيات من سورة الشورى.

يقول تعالى ممتنًّا على خلقه: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا}(١) فإذًا هذا الدين شرعُنا وشِرعُ من قبلنا، إذا تأملنا سنجد أصاله هذا الدين، {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا} فهذه الشريعة أي هذا الدين مثلُ ما وصى به نوح في أيّ شيء؟ **في أصول الدين**، مما يجب لله تعالى من الصفات في أصول الشريعة كليات التشريع وأعظمها على الإطلاق **التوحيد**، ثم ما بعد ذلك من الكليات الخمس الضروريات ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها، فإن كل ما اشتملت عليه الأديان قد أُودع مثله في دين الإسلام، الأديان السابقة كانت قد تأمر بالتوحيد؛ الإيمان بالبعث؛ تصديق لقاء الله؛ الأمر بتقوى الله؛ وامتثال أمر الله بمكارم الأخلاق بحسب ما هو معروف الأَخْزَابِ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨)} صحف من؟ {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)}(٢).

(١) [سورة الشورى: ١٣]

(٢) [سورة الأعلى: ١٤ + ١٩]

إذًا معنى ذلك أن ديننا أصيل، وُصّينا به كما وصي به من قبلنا، ولكي تفهم هذا جيدًا، فانظر إلى الحج، فإذا وضعت قدمك في منى فاعلم أن هذا المكان أتاه كل الأنبياء! وهذا المسجد-مسجد الخيف-صلى فيه كما ورد في الحديث سبعون نبيًّا[١].

فهذا دين واحد ولو اختلفت التشريعات التفصيلية، ولو تباعدت الأزمنة، يجتمع دين الإسلام مع ما قبله في الأصول وإن خالفها في الفروع، امتازت هذه الشريعة السمحة بأمور عظيمة:

- امتازت بتعليل الأحكام؛ فكثير ما يذكر في القرآن علة الأحكام.
- امتازت بسد الذرائع.
- امتازت برفع الحرج، بالسماحة.
- امتازت بشدة الاتصال بالفطرة. كل هذه من النعم العظيمة التي أنعم الله-عزَّ وجلَّ-بها علينا.

بسم الله الرحمن الرحيم

{شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)}[٢]

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

"هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده".

فهل من شاكر لذلك؟! هل من شاعر بذلك؟ من وجوه التفكر والتعبد، أن نتفكر في محاسن الشريعة، واليوم يوم نشر المحاسن، الآن آن أوان نشر المحاسن بين الناس، إن الناس طربت بهم نفوسهم وكثرت عليهم الفتن ووقع ما وقع

١() رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

(٢) [سورة الشورى: ١٣ - ١٦]

في قلوب الخلق سبب الافتراق الذي سيأتي الكلام عنه، فآن الآن أوان ذكر المحاسن، وإن كان من الزمن الأول هو وقت ذكر محاسن الدين، لكن من العبادات العظيمة التي نتقرب بها إلى الله أن نعظم هذه النعمة؛ لأنها-كما قال الشيخ-"أكبر منّة أنعم الله بها على عباده"، وأن ندعو إليها بذكر محاسن الدين، سيأتينا إن شاء الله في سياق الكلام الأمر بذلك.

ما هي أكبر منة أنعم الله بها على عباده؟

"أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار، وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شرعه الله لهم لابد أن يكون مناسبا لأحوالهم، موافقا لكمالهم، بل إنما كملهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلولا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحى الكمال".

فالدين الإسلامي هو ديننا ودين الأنبياء قبلنا، الإسلام المبني على الاستسلام.

ولهذا لا تتعجب فإن اسم الإسلام يطلق على أمور ثلاثة:

١. يطلق في أضيق معنى له يقابل أركان الإيمان، إذًا يوجد أركان الإسلام وأركان الإيمان.
٢. أوسع من ذلك دينا دين النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-اسمه الإسلام.
٣. أوسع من ذلك أديان الأنبياء كلهم اسمها الإسلام.

فمعنى ذلك أن أعظم منّة منّ الله بها على الخلق أن شرع لهم الدين، وهذا الدين هو الإسلام.

والإسلام مبني على الاستسلام ولذلك لو نظرنا في كلام نوح عليه السلام لما قال لقومه: {فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)}(١) ، إذًا هذا دين نوح-عليه السلام-، ومثله حين نسمع موسى: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)}(٢) ، فإذًا هذا أيضًا دين موسى-عليه السلام-.

(١) [سورة يونس: ٧٢]
(٢) [سورة يونس: ٨٤]

وهكذا نفهم أن هذا الدين ديننا ودين من قبلنا هو دين الإسلام، فإذا شعرنا بهذه الصلة العظيمة بحثنا، هذا الدين ما أثره على الخلق؟ شرعه الله لهم لهؤلاء الكُمَّل من الخلق، عندما نرى إلى الآية نرى ذكر أولي العزم من الرسل.

{وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا} هذه أول الرسالة، {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} هذه خاتمة الرسالة، إذًا البداية والنهاية {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا} أول الرُسل {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} آخر الرسل وهو النبي-صلى الله عليه وسلم-، ثم ذكر إبراهيم الذي هو رأس الحنيفية، وموسى الذي شرعه من أوسع الشرائع، وعيسى الذي سبق النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-مباشرة، فهؤلاء أولي العزم من الرُسل كان شرعهم الإسلام كما كان شرع كل الأنبياء والمرسلين.

هؤلاء كمّلهم الله بالإسلام، واصطفاهم بسبب قيامهم به، فلولا دين الإسلام ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة وقطب رحى الكمال.

ما هو هذا الدين؟

قال: **"وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب."**

دعا الدين إلى أربعة أمور:

١. **التوحيد** سواء كان في أسماء الله-عزَّ وجلَّ-وصفاته أو كان في الألوهية.
٢. **والأعمال** التي هي بالقلب والبدن.
٣. **والأخلاق** التي هي تعامل الإنسان مع الخلق.
٤. **والآداب** التي يتأدّب بها الناس في معاملاتهم.

"ولهذا قال: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ}".

يعني هذه المنة وهذا الشرع الذي شرعه لك ما هو المطلوب أمامه؟ المطلوب أمامه {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ}.

"أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه".

كيف تكون إقامتها؟

"تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم".

تقيمونه أي الدين، إذًا ما معنى إقامة الدين؟

أولًا: نقيمه على أنفسنا.

ثانيًا: نقيمه على غيرنا.

"وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان".

ولذلك أمس في السورة التي درسناها (فصلت) التي سبقت الشورى مباشرة، سمعنا في مدح من دعا إلى الله {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ}(١) ، **واليوم يزيد هذا الثناء والمدح ويظهر أكثر ما هو المطلوب، أربعة أمور:**

١. أقيموا الدين على أنفسكم.
٢. اجتهدوا في إقامته على غيركم.
٣. ثم تعاونوا على البر والتقوى.
٤. وكونوا حذرين من التعاون على الإثم والعدوان.

هذه إقامة الدين.

ثم يقول-سبحانه وتعالى-: **{وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}**.

ولا تتفرقوا في الدين.

"{وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزابا، وتكونون شيعا يعادي بعضكم بعضا مع اتفاقكم على أصل دينكم".

وهذا الأمر الخطير الذي يعيشه المسلمين اليوم وهو مسألة التعصب والتحزب مع اتفاقهم على الدين لكنهم يتعصبون ويتحزبون.

أي أنت الآن عبد لله في جميع أمورك، ما هو المطلوب منك؟ أن تنقاد لله، تخضع له في كل شيء، وتستسلم لأن دينك اسمه الإسلام، تستسلم استسلامًا كاملًا لله في جميع الأمور.

المسلم الحقيقي ماذا يفعل؟ يخلص عبادته كلها لله، كما أنه لا يصلي إلا لله، ولا يخاف إلا من الله، ولا يتحاكم إلا لشرع الله، أيضًا لا ينتمي لجماعة تشتري ولاؤه، بحيث يوالي ويبرأ على هذه الجماعة، لا ينتمي إلا لدين الله، لا يتحزب لحزب ولا يوالي إلا أولياء الله، ولا يعادي إلا أعداء الله، هذا كان من أعمال الجاهلية-التحزب-، اليوم توجد أسماء كثيرة في داخل الدين وخارجه، "الليبرالية، العلمانية، القومية، البعثية" فالناس يتصورون أنه يمكن أن

(١) [سورة فصلت: ٣٣]

يجمعوا بين الأمرين، الدين كامل له أحكامه التعبدية، وله أحكامه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فأنت لست بحاجة لأي أحد ولا لأي نوع من التفكير، إنما بهذا الدين فكِّر، لا يمكن أبدًا أن يكون إنسان مسلم في الجانب التعبدي، مثلًا علماني في الحياة، أو اشتراكي في الجانب السياسي أو الاقتصادي! هذا تناقض! كيف يجمع بين متناقضين؟! الإسلام له أحكامه في كل شيء.

فالحذر من هذه الانتماءات، والحذر أيضًا من الانتماءات التي تتجه إلى الصبغة الدينية فيدخل الناس في الأحزاب ويوالون ويبرؤون عليها وينتصرون لها وينتصرون لاسم الحزب أو لأشخاص الحزب، ويحصل ما يحصل من تفريق المسلمين في الأفكار والتصورات والمناهج.

يقول النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ صَامَ وَإِنْ صَلَّى؟ قَالَ: ((وَإِنْ صَامَ وَإِنْ صَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ))[١].

إذًا المطلوب أن نحذر من هذه طوائف الحزبية، ما دخلت الحزبية مجتمع إلا فرقته، ولا إنسان صالح إلا أفسدته، ولا كثير إلا قللته، ولا قوي إلا أضعفته، فكل طائفة ماذا تريد؟ تشتري ولاء الناس وحبهم، والأعداء لغيرهم وإن كانوا يقومون بنفس العمل ويريدون خدمة الدين وخدمة نفس الهدف، فمن هذه الكلمات الكبيرة العلمانية والاشتراكية نعود إلى الصغيرة التي يمكن أن تكون قريبة ونعايشها.

الحزبية هذه عصا تفرّق الجهود، يستلمها كل شخص من هؤلاء الأحزاب فيضرب بعضهم بعضًا! والله-عزَّ وجلَّ- يختبرنا اختبارًا عظيمًا في هذا الأمر، فنجد الناس يحبون القرآن يريدون أن يخدموا الناس في القرآن، يريدون أن يخدموا المجتمع فيُقْرئونهم القرآن ويدعون إلى الله، فلا تجدهم بعد هذا الصدق الذي بدؤوا به إلا والوا وجعلوا ولاءاتهم على مكانهم، على مدرستهم، على مؤسستهم، يصبح على حزبهم، فحزبهم هذا ممكن أن يكون على اسم مدرستهم، أو حزبهم اسم مؤسستهم، فتدخل الأخطار وهم لا يشعرون حقيقة، فلا تجد إقامة الدين على أنفسهم وعلى غيرهم، ولا التعاون على البر والتقوى.

ولا النهي عن الإثم والعدوان، أمر ليس بالسهل طرحه واستيفاء حقائقه، **لكن الأمر يحتاج إلى استغاثة**، أنت مطلوب منك أن تجتمع مع جماعة المسلمين {أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١]، {وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)}[١] هذه الغلبة موعود بها وثابتة لحزب الله.

(١) مسند أحمد، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده: حديث صحيح.

من هم حزب الله؟ هم الجماعة، ((وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلاَّ وَاحِدَةً وَهِيَ: الْجَمَاعَةُ))[١]، أيضًا من ألفاظ الحديث[٢]: ((مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي))[٣] معناه: أننا كلنا نسير في طريق وراء النبي-صلى الله عليه وسلم-ننشد الحق، نسعى في فكاك أنفسنا من عذاب الله، وننأى عن شق عصا المسلمين.

فنحن نبذل جهودنا في الاجتماع مع المسلمين وليس تفريقهم وتكفيرهم، هنا جماعة تجتمع وهنا جماعة تجتمع وهنا يعتصمون وهنا يعتصمون فهذه حزبية! فالخطر الخطر أن تدخل أفكار فيجتمع عليها الناس فتكون جزءًا من الدين وليست الدين كله، يعني الأحزاب الدينية تأتي إلى أمر من أمور الدين وتعتني به وتعليه وتجعل الولاء والبراء عليه.

مثلًا تجعل تطبيق الشريعة هي موضوعها-المقصود في نظام الدول-، ويكون كل همّها أن تصل، في بداية الأمر يكونون مهتمين ثم تتفرق بهم الشعب، لكن المرحلة الأولى في حياة ولادة الحزب اهتموا بتطبيق الشريعة، واهتمامهم بتطبيق الشريعة، الكلام عن الطبقة العليا في الدول من أجل أن تطبقه في المحاكم في الاقتصاد...كما يزعمون، الحزب اعتنى بهذه المسألة، يواجهون أشخاص حولهم من عامة الناس-المدعوّين لنا ومطلوب منا نأمرهم بالمعروف-يخالفون في توحيدهم يشركون بالله، يتقربون لغيره، يحتفلون ببدع، نغمض أعيننا عن هذا كله، وهدف واحد جزء من الشريعة.

نحن لا نختلف أن تحكيم شرع الله مقصد عظيم من مقاصد إقامة الدين، لا يختلف عليه اثنين، لكنه جزء من الدين وليس الدين، فالأحزاب الدينية ماذا تفعل؟ تأخذ جزء من الدين وتقيم الدين عليه، من قال أنا سأنظر للدين كله وسأجمع الناس عليَّ من أجل إقامة الدين، نقول: لا يحتاج أن تسمي نفسك اسمًا ولا تكوّن لك حزبًا، بل اجمع الناس يتعلمون في المدارس والمعاهد والجامعات، هذه تنظيمات لابد منها، اجعلهم يجتمعون ثم يتفرقون كل واحد منهم يدعو إلى دين الله واربطهم بأهل العلم واربطهم بالعلماء واربطهم بالسلف الصالح واربطهم بالتراث العظيم الذي تركه الأولين لنا، ولا تربطهم بشخصك، لست أنت إنما اربطهم بالدين.

فالحزبية شأن عظيم، تجد الناس في نهاية الأمر ينظرون إلى هذه الجماعات نظر التعظيم إلى أن نصل إلى نظر التشريع! فيكون في نفوسهم ولاء لغير الله ولغير دين الله، والخطر طبعًا في أن من ليس معنا فهو ضدنا، وإذا كان الأمر بهذه الصورة، افترق المسلمين، غير أن نفس هذه الأحزاب والطوائف ماذا ستفعل؟ ستكون في داخلها حرب؛

---

(١) [سورة المجادلة: ٢٢]

(٢) [سورة المائدة: ٦٥]

(٣) سنن ابن ماجه(٣٩٩٣) قال الألباني: صحيح.

(٤) سنن الترمذي(٢٨٥٣) قال الألباني: حسن.

لأن شهوة العلو شهوة لا يستطيع أحد أن يدافعها إذا لم يسير على دين الله وعلى إخماد ذكر نفسه، إذا لم يكن صادقًا في ذلك.

إذًا لا تتفرقوا في الدين، اجتمعوا عليه، من أخطر ما يواجه المسلمين اليوم: هذه الجماعات والفرق التي تنشأ في داخلها، **إنما نسعى حثيثًا لجمع الناس على القرآن**، اجمعهم في كل مكان على القرآن، لا تطلب منهم ولاءات خاصة، لا تطلب منهم اجتماعات سرية، لا تقم بعمليات تنظيمية تجعل الأمر في الدعوة معقّدًا.

نكون منظّمين ونستعمل كل الطرق التي توصلنا لدعوة الخلق، ولكن ليس حزبًا سياسيًا أو دينيًا تفسد به أكثر مما يصلح، الحزبيات المقيتة شتت الأمة وفرقت شملها وأضعفت صفها ونشرت بينها الأحقاد والضغائن، ارتفعت شعارات شيطانية، تعددت الرايات العنصرية، كثرت التعددات الحزبية، تفرق مجتمعنا {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)}[1]، يقول تعالى: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)}[2].

على كل حال، الأمر شديد خطير يدب دون أن نشعر، نحذر منه المجتمعات الصغيرة في الدعوة، كما نحذر منه المجتمعات الكبيرة، نحذر منه من اجتمعوا في تنظيم لابد منه، أي في معهد أو مدرسة، أي نحذرهم نقول: لا تتعصبوا على مكانكم ولا تجعلوا ولاءكم له، إنما ولاؤكم لله. وفي نفس الوقت نقول: مكان أنا أعمل فيه ألا يكون لي مشاعر خاصة تجاهه؟ بلى تكون لك مشاعر خاصة تجاهه، توالي وتبرأ لله، تحب هذا المكان الذي تتعلم فيه القرآن، كيف لا تحبه! كيف لا تحب المكان الذي اجتمعت أنت وإخوانك فيه وكانت الملائكة تحيطُ بكم.

لكن هناك فرق بين أن تحبه وبين أن توالي وتبرأ.

وعلى كل حال الأمر كله يطرح الحاجة إلى التوازن عظيمة فيه، فعندما يأتي أحد نقول: لا للحزبية، تأتي في المقابل ذلك دعوات للنفور من جماعات المسلمين! اجتمع معهم اجتمع على الخير، لكن لا توالي وتبرأ عليهم، ولا تحب من يحبُهم وإذا خالفوك الرأي تركتهم، ولا تقل: أنت معي أو ضدي، لكن لكل شيء مساحة، هناك مساحة لأن تقول: أنا لا أحب طريقتكم في تعليم العلم أشعر أنكم شديدون وتزيدون على الناس في مسائل الاهتمام بكذا وكذا، وأنا أحب من يعلمني يكون كذا وكذا (حكمه، وحاله، ووضعه) لا بأس، هذه طريقة وهذه طريقة، ولكن في النهاية كلنا نتعلم قال الله وقال رسوله، كلنا نجتمع على تعظيم الله وتعظيم الشرع.

---

(١) [سورة المؤمنون: ٥٣]

(٢) [سورة الروم: ٣١-٣٢]

نحن ما لنا إلا أن ندعو الله أن يسلمنا من الحزبية، ما لنا إلا هذا، ثم ندعوه-سبحانه وتعالى-أن يبين لنا الطريق؛ لأن كثيرا ممن يحارب الحزبية أصبح حزب بمحاربته الحزبية! بمعنى ينظرون للأحزاب الموجودة في الساحة ويبغضونها وينهون الناس عن التحزب، جميل إلى هنا، لكن إذا ما قبلت الذي تسمع الكلام منهم أن تنصف في صفهم وتكون معهم، هم تحزّبوا عليك وأصبحتَ مطرودًا من عندهم! قد عاد الأمر على نفس الأمر! أصبح الذين يحاربون الحزبية أحزابًا بأنفسهم، وهذا كثير، فقد تولّدت الأحزاب من بُغض الأحزاب! تولّد في التاريخ الحزبية من بغض الأحزاب.

مثلا: لما وقع التشبيه في صفات الله في عصر من العصور المتقدمة-عصر الإمام مالك-وأصبح هؤلاء المشبهة فرقة وجماعة اجتمعوا على هذا الأمر، ردّ عليهم الجماعة الآخرون بتعطيل صفات الله، وأصبحوا حزبًا فكريًّا يضادون فيه المشبهة، فالمعطلة ردًّا على المشبهة، وبذلك كوّنوا حزبًا يخالف الأول، من سلم؟ أهل السنَّة والجماعة الذين بقوا على دينهم، يبغضون هؤلاء ويبغضون هؤلاء، يرفضون فكر هؤلاء ويرفضون فكر هؤلاء، بقوا مع منهج رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فإذًا المعنى لازلت أقول لكم وأسأل الله-عزَّ وجلَّ-لي ولكم ولجميع المسلمين الهداية على الصراط المستقيم، أمر غاية في الحساسية غاية في الدقة يحتاج إلى عناية؛ لأنه يتسرب تسربًا إلى النفوس دون أن يشعُر الإنسان، فنحن من عظّم الله وعظّم كتابه وعظّم نبيه وعظّم شرعه وبذل جهده في نشر ذلك بين المسلمين، وطرق أبواب المسلمين كل باب يستطيعه لإيصال الحق، نحن مع هؤلاء دون أن ننتمي لهم ودون أن نقبل بكل آرائهم التي يفرضونها، إذا قال رأي هذا رئيسهم لا بد أن يقبله الجميع، هذه هي الحزبية هذه بالضبط الحزبية.

أسأل الله-عزَّ وجلَّ-الهداية إلى الطريق المستقيم، وأسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يرفع عن المسلمين ما بهم من كرب، إن السبب الرئيس في ظهور الأحزاب هو قلة العناية بالعلم هذا أهم سبب، واتباع وتعظيم الآراء والأهواء، فبعدما كنا نرى في البلاد حزب وحزبين الآن الأحزاب بالمئات! الناس يرفعون رايات ويريدون من الناس أن يجتمعوا حولهم ويحذرون من غيرهم، أصبح هذا هو الطريق! يكون لهم رأي ثم يجمعون الناس عليه ويبذلون جهدهم ويكررون حتى يجمعوا الناس عليه ويحذرون من أي أحد يخالفهم، وانتهى الأمر بأننا بدل الحزب والحزبين الذي كان يعاني منه الأوائل، أصبحت الأحزاب بالمئات، والله وحده المستعان.

يقول: "ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه: ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد".

فإذًا هذا من أنواع الاجتماع التي أمر الله-عزَّ وجلَّ-بها المسلمين، وفي كل هذا الاجتماع لابد أن يكون هناك قائد، لابد أن يكون هناك إمام، فشَغَبهم على الإمام وافتراقهم من حوله يسبّب-حتى في هذه الأمور-الافتراق.

"وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق"

إذًا هذا الدين العظيم يأمر بالاجتماع، وإذا أمر بالاجتماع ونهى عن التفرق، أصبح الأمر بالاجتماع عبادة، والتفرق إثم، فنسأل الله أن يسلمنا من الآثام ويفتح لنا أبواب الإيمان.

"{كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} أي: شقّ عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} وقولهم: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}".

أي: شق عليهم غاية المشقة، لماذا؟ حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده. لما دعاهم النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-للإخلاص كان صعبًا عليهم!

يقول-سبحانه وتعالى-**"{اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ} أي يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته ومنه أن اجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها".**

لأنهم كانوا يردون الدين بسبب دعوة التوحيد وبسبب أن الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-بشر، يقول تعالى: {قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا}(١)، {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)}(٢).

"{وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصدا وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ}".

أي أن الله-عزَّ وجلَّ-يجتبي من يشاء، يختار من يشاء للرسالة، للاصطفاء، والعبد ماذا يفعل؟ هناك سبب من عنده من أجل أن ينجو، ما هو السبب؟ الإنابة {وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}.

---

(١) [سورة الإسراء: ٩٤]

(٢) [سورة الزخرف: ٣١]

هذا السبب الذي من العبد يتوصّل به إلى هداية الله تعالى، **"وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصدا وجهه."**

إذًا حتى تنجو من التفرق والاختلاف وتكون ممن تابع الدين والشرع، عليك بأن تنيب، يهدي إليه-سبحانه وتعالى-من ينيب. فالعمل الذي تقوم به من أجل أن تصل إلى ربنا هو أن تنيب له، ما معنى (تنيب)؟

أن يكون قلبك منجذب طوال الوقت إليه، بمعنى دائما تريد رضاه، تتابع في جميع أعمالك طلب رضاه، يكون مقصدك طلب الرضاء، فمثل فهؤلاء إن صحّت منهم الإنابة وصحّ منهم بذل الجهد وصحّ منهم البحث عن الطريق الذي يرضي الله فأخطؤوا، الله-عزَّ وجلَّ-يعاملهم برحمته ولطفه، فمن جهة يدلهم الطريق ومن جهة أخرى يغفر لهم أخطاءهم وزلاتهم.

"فحسن مقصد العبد، مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها".

١. فحسن مقصد العبد.

٢. مع اجتهاده في طلب الهداية.

← من أسباب التيسير لها.

ونحن هنا في أزمة ونخاف أن نكون أحزابًا ونحن لا ندري، ونخاف أن نحارب الحزبية فندخل فيها، ونخاف ونخاف... نقول: الله يهدي إليه من ينيب، ماذا نفعل؟ نجتهد في طلب الهداية، فنحسن قصدنا في طلب رضا الله، ونجتهد في طلب الهداية من الله، إذا فعلنا هذا، ييسّر الله-عزَّ وجلَّ-لنا الهداية، فلا يخبطك البشر بكلامهم، يأتيك أحد فيقول لك: هذا الطريق وهنا الطريق، هذا التخبط من الناس أكثر شيء يشتت عقيدة الإنسان، فلا تكن {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى} ماذا يقولون له؟ {ائْتِنَا} الجواب: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}(١)، الحمد لله، الله-عزَّ وجلَّ-أراحنا من الخلق ومن شتاتهم.

ماذا نفعل؟

عندما تختلط علينا الأمور بهذه الصورة ما لنا إلا الاستغاثة، نستغيث بربنا، نتجه بقلوبنا إليه، فإذا اتجهنا بقلوبنا وبذلنا جهودنا في أخذ الأسباب، يرسل الله لنا الأسباب، وييسّر لنا الطريق، الحمد لله رب العالمين الذي لم يوكلنا

(١) [سورة الأنعام: ٧١]

إلى خلقة لا في رزقنا المادي ولا في رزقنا المعنوي، الحمد لله رب العالمين، فضل علينا أن نشكر الله-عزَّ وجلَّ-على ذلك، لكن أهم شيء نكون صادقين في إرادة رضاه ونبذل الجهد في ذلك.

"وفي هذه الآية، أن الله {يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} مع قوله: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصا الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين".

خرج الشيخ بفائدة قال: هذه الآية التي ندرسها الآن في الشورى وقوله تعالى: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}(١) مع العلم بأحوال الصحابة-رضي الله عنهم-، وشدة إنابتهم، سيوصلنا لماذا؟ دليل على أن قولهم حجة، خصوصًا الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين.

إذًا الله {يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} وأمرنا: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} ، فإذًا هذه علامات تُميّز، فإذا نظرنا للآيتين، ونظرنا إلى حال الصحابة الكرام خاصة الخلفاء الراشدين، جعلنا قولهم علينا حجة.

يقول تعالى: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} الآن ما الذي حدث فجعل الناس يتفرقون؟

"لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيا وعدوانا منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم".

إذًا وصَّاكم بهذا الدين وأمركم أن تجتمعوا فكونوا على حذر، لا تغتروا بهذا الاصطفاء بأن الله أعطاكم الكتاب، إنّ أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمرهم به كتابهم، لماذا؟ هذا بسبب ما في نفوسهم، ذلك كله بغيًا وعدوانًا منهم. فإنهم تباغضوا، هذا أول الأمر، وتحاسدوا كل واحد يريد أن ينتصر لرأيه، كل واحد يريد أن يكون هو صاحب الرأي! فلا تغتروا لأن الكتاب معكم، فإن نفوسكم هي التي تستقبل الكتاب.

(١) [سورة لقمان: ١٥]

"{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ} أي: بتأخير العذاب القاضي {إلى أجل مسمى لَقُضِيَ بَيْنَهُم} ولكن حكمته وحلمه اقتضى تأخير ذلك عنهم. {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِم} أي: الذين ورثوهم وصاروا خلفا لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم {لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغيا وعنادا، فإن خلفهم اختلفوا شكا وارتيابا، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم".

ولكن حكمته وحلمه اقتضى تأخير ذلك عنهم: المقصود بهم النصارى واليهود، يعني بدأ الأمر بأنهم اختلفوا بغيًا وعنادًا، يعاند بعضهم بعضا، ينتصر هذا لرأيه وهذا لرأيه، لا يتنازل أحد عن رأيه، اختلفوا، أتوا من بعدهم وعندهم سبب الاختلاف ولكنه الشك والارتياب في صحة ما معهم.

"{فَلِذَلِكَ فَادْعُ} أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه، من لم يقبله، {وَاسْتَقِم} بنفسك {كَمَا أُمِرْتَ} أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالا لأوامر الله واجتنابا لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك".

إذًا بهذا الكتاب، وهذا الحمد لله أمس قرأنا فيه كلام الشيخ أسأل الله أن ينفعنا بما نسمع.

"ومن المعلوم أن أمر الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-أمر لأمته إذا لم يرد تخصيص له.

{وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم} أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: "ولا تتبع دينهم" لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا".

فأنت وأنا وأنتم والمسلمون واجبهم أنهم يدعون ويستقيمون كما أمروا.

من الكفرة هذا صنف، **ومن المنافقين** هذا الصنف الخطير.

لا تتبع أهواءهم، **إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله** يقنعونك أن الناس اليوم ما يحتاجون، ماذا لا يحتاجون؟! إن الحاجة إلى العلم كالحاجة إلى الطعام والشراب، بل أعظم من الحاجة إلى الطعام والشراب،

وهل هناك أحسن قولًا ممن دعاء إلى الله، فحبب الله إلى خلقه وعلمهم القرآن وعلمهم السنَّة، هل هناك أحد أحسن قولًا من ذلك؟

فإذًا لا تتبع أهوائهم **باتباع دينهم وتفكيرهم أو بترك الدعوة إلى الله أو بترك الاستقامة** على هذا الدين، الذين ظلمتم أنفسكم بهذا الفعل، والله-عزَّ وجلَّ-لم يقل "ولا تتبع دينهم".

"{وَقُل} لهم عند جدالهم ومناظرتهم: {آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ}".

وقل لهم عند جدالهم ومناظرتهم لتبين لهم الحق: آمنت بما أنزل الله من كتاب.

"أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمنته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليه جزء من الإسلام".

ما هو الأصل؟ هو أنني آمنت بما أنزل الله من كتاب، كل الكتب أنا مؤمن بها، كتابي والكتاب الذي نزل على موسى والكتاب الذي نزل على عيسى والصحف الذي أنزلت على إبراهيم، مؤمن بكل كتاب أنزله الله.

أي الدين الذين يقولون إنهم عليه هو جزء من الإسلام، فنحن نؤمن بعيسى-عليه السلام-ونؤمن بموسى، وأنتم عليكم يا أهل الكتاب أن تؤمنوا بنبينا.

"وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك؛ لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقا بهذا القرآن وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم".

إذًا نحن أمرنا بالإيمان بموسى وعيسى، الآن الكلام عن أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، أمرنا بأي شيء؟ أمرنا أن نؤمن بعيسى وموسى والتوراة والإنجيل التي أخبر الله بها، وكانت التوراة والإنجيل عُلمنا في كتابنا أنها فيها خبر عن القرآن وفيها خبر عن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-فأتى القرآن مصدق للتوراة والإنجيل.

فهذا الذي نؤمن به، أما مجرد أن يشترك الاسم يقولون هذه التوراة وهي تكون من كلامهم، وهذا الإنجيل وهو محرف من عندهم، وهذا موسى، وهذا عيسى بصورة ليست حقيقية ويصفونها أحوالًا ليست حقيقية! هذا لم نؤمر أن نؤمن به.

"وقوله: {وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم يا أهل الكتاب من العدل بينكم".

بغضكم من أجل أي شيء؟ من أجل تحريفكم للكتاب.

"ومن العدل في الحكم بين أهل الأقوال المختلفة من أهل الكتاب وغيرهم:"

ما هو العدل؟

"أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل".

هناك حق يمكن أن يقولونه سنقبله، أما الباطل فنرُده.

"{اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُم} أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا".

الله ربنا وربكم، فلماذا تظنون أن طريقكم هو الذي يوصلكم، أن الله ربُنا وربُكم أمرنا وأمركم، أن تؤمنوا بهؤلاء الأنبياء كما وصف وبكتبه كما أمر، كما شرع-سبحانه وتعالى-وأمركم أن تؤمنوا، كما تؤمنوا بالتوراة أو الإنجيل تؤمنون بالقرآن.

"{لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُم} من خير وشر {لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ} أي: بعد ما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل؛ لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} وإنما المراد ما ذكرنا".

لماذا؟ لأن المقصود من الجدال بيان الحق من الباطل، لأجل أي شيء؟ ليهتدي الراشد وتقوم الحجة على الغاوي.

أي المقصود لا حجة بيننا وبينكم بعدما جادلناكم وبينا لكم الحق، وليس ممنوع الجدال على الإطلاق.

" {اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} يوم القيامة، فيجزي كلا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب. {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} وهذا تقرير لقوله: لا حجة بيننا وبينكم.

فأخبر هنا أن {الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ} بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة {مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ} أي: من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة.

فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ} أي: باطلة مدفوعة {عِنْدَ رَبِّهِمْ} لأنها مشتملة على رد الحق وكل ما خالف الحق، فهو باطل."

المعنى: أن الحق يظهر ويقبله أولوا الألباب الذين يفكرون، فهؤلاء بعد ظهور الحق وبيانه يأتون يخترعون حججًا من أجل أن يردوا الحق وتكون هذه الحجج باطلة بعد بيان الحق واضحًا.

"{وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ} لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها. {وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل".

وهذا طبعًا لا يخص أهل الكتاب إنما خص كل من يدخل في جدال ويخترع اختراعات بعد أن ظهر له الحق جليا فمثلًا: هذا الدين دين الرحمة ظهرت تفاصيل الرحمة في شرعه وترى فيه آثار كمال صفات الله، فيترك كل هذا الظاهر بعد المحاجة وبيان الشأن، ثم يأتي يلقي عليك شبهة، يكلمك عن الرقيق والعبيد، ولماذا في الشرع يوجد عبيد، وهذا نوع من أنواع إلقاء الشبهة بعدما تبين الحق، وعلى كل حال: مثل هذا أمر عندنا جوابه وواضح فهمه لكن الإشكال في أي شيء؟ الإشكال في أن هذه الأمور من أجل أن تُفهم تحتاج أن تكون ذا خبرة في الشؤون الاجتماعية، ذا خبرة في أحوال الخلق، ذا خبرة في أوضاع الحروب وفي أوضاع البشرية كيف كانت ولا زالت، وهل هم العبيد اختفوا؟ وهل غارات الغرب والشرق على البلدان انتهت؟ لكن الأمر يحتاج إلى تفصيل.

فهم يتركون الظاهر البيّن الذي فيه دلالة واضحة على أن هذا الدين هو الحق، ويدخُلون إلى تفاصيل تحتاج أنت لطرحها وفهمها وبيانها تفاصيل، فهذا إنما هو جدلٌ بالباطل.

الدين دين الرحمة ودين السلام ودين يوصل الخلق إلى كل حق، والذي يشكل عليك بيانه يسير لو أنت دعوت الله أن يسلم لك قلبك وأن تكون صادقًا في إرادة الحق، إذن الشرط واضح أن الله يهدي إليه من ينيب.

هذا ما تيسر من الآيات العظيمة في سورة الشورى، أسأل الله-عزَّ وجلَّ-بمنّه وكرمه أن يجعله مجلسًا مباركًا وأن ينفعنا به.

اللقاء السادس والعشرون

تفسير الآية ٢٩ من سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا السادس والعشرون من اللقاءات الرمضانية التي نسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يتقبّلها ويجعلها من الأعمال الصالحة التي تكون ذُخرًا لنا يوم أن نلقاه.

ومن نعمة الله على خلقه أن حبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، **ومما حبّب الله لأهل الإيمان: حبّب إليهم نبيّهم-صلى الله عليه وسلم-، وحبّب إليهم صحابته الكرام**، وكيف لا نحبّه-صلَّى الله عليه وسلَّم-وهو طريق الهدى لأهل الإيمان! وكيف لا نحبّ صحابته الكرام وهم من كانوا نموذجًا لتحمّل الآلام في سبيل نشر هذا الدين! فقد تابعوه-صلَّى الله عليه وسلَّم-في وقت الضيق، وكانوا معه في أشدّ الأحوال، وكانوا هم من اختارهم الله واصطفاهم لصحبته، وقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثلة في محبته-صلى الله عليه وسلم-، فهذا التاريخ العظيم الذي يشهد على ما يحمله الصحابة من حبّ وتعظيم نحتاج إلى تحريكه في نفوسنا قربة إلى الله وحبًّا لله، فنحن نحب نبي الله من حُبّنا لله، ونحب الصحابة الكرام من حُبّنا لله ولرسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وإذا قلّبنا صفحات التاريخ.. وجدنا امتثالًا لا يقابله امتثال، وائتمارًا لا يقابلها ائتمار، سكن في نفوسهم تعظيم النبي وتوقيره، وسكن في نفوسهم ودّه ومحبّته، فلما تسمع مثلًا:

- أن عبد الله بن رواحة-رضي الله عنه-سمع النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وهو يخطب ويقول "اجلسوا " فجلس وكان خارج المسجد! فلما انتهى من خطبته-صلى الله عليه وسلم-بلغ ذلك الرسول فقال: ((زادك الله حرصًا على طواعية الله وطواعية رسوله))[1] فهل مثل هذا الحرص يقابله حرص؟! ومثل هذه الطاعة تقابلها طاعة؟!
- وقد ورد عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: ((كُنَّا مَعَ ابْنِ عُمَرَ فِي سَفَرٍ، فَمَرَّ بِمَكَانٍ فَحَادَ عَنْهُ، فَسُئِلَ لِمَ فَعَلْتَ؟ فَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ-صلَّى الله عليه وسلَّم-فَعَلَ هَذَا فَفَعَلْتُ!))[2] وهذا تعليل كاف.

(١)رواه البيهقي في "دلائل النبوة". وأبو داود في "السنن" بسنده عن جابر -رضي الله عنه-قال: "لما استوى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يوم الجمعة قال: اجلسوا، فسمع ذلك ابن مسعود، فجلس على باب المسجد، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: تعال يا عبد الله بن مسعود". صححه الألباني.

(٢)رواه أحمد والبزار بإسناد جيد، قال الألباني صحيح.

فمعنى هذا أن كل حبّ لهم سيكون قربة لله، وكل ذكر لهم سيكون مما يحبه الله، نترضّى عنهم جميعًا، ونُظهر محاسنهم، ونعلم من هم عند الله، ونعلم بشريّتهم، وهذا مما يميّز هذا الدين العظيم، ثم إننا عندما نحبهم هذا الحب لابد أن تأتي له صور للتعبير عنه، **فمن ذلك:**

- الدفاع عنهم حين يتعدّى عليهم متعدٍ.
- والحرص على معرفة سيرهم.
- وجعلهم قدوات في أعين أبنائنا.
- ونشر فضائلهم.
- الكف عما شجر بينهم وكتمان ما نُقل من مواقف صحيحة يظهر فيها بشريتهم، إنهم بشر.
- وحبّ تسمية أبنائنا بأسمائهم، وجعل ذلك عند الناس من الأمور المزكاة المحبوبة وغير ذلك مما يلزمنا.
- ومن أهم ما يلزمنا في حبهم: أن نعرف كيف أثنى الله عليهم في القرآن لكي نثني عليهم بما أثنى الله

ومن هذا دراستنا لسورة الفتح.

ففي هذه السورة العظيمة يبرز مكانة الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-عند ربه، ومكانة الصحابة عند الله، والأعجب من ذلك: وأن خبرهم في التوراة والإنجيل، فإن كنا سمعنا كثيرا أن القرآن مصدقا لما في التوراة والإنجيل من أصول العقائد والشرائع والدين، فاسمع أيضًا أن القرآن مصدقًا لما في الكتب السابقة من التوراة والإنجيل في وصف الرسول ووصف أصحابه، فأي مكانة لهؤلاء عند الله يصفهم في الكتب السابقة للأقوام السابقين؟! هل نعلم ما معنى ذلك؟

معناه أنهم كانوا قدوات قبل أن يأتوا! كانوا منارات للهدى قبل أن يكونوا!

فسبحان الملك العظيم الذي يصطفي من يشاء ويختار!

سبحان الملك العظيم الذي بيده ملكوت كل شيء وهو العليم الحكيم!

هذه السورة العظيمة إذا نظرنا لمطلعها سنجد أمرًا عجبًا، وإشارة هي من أعظم الإشارات لمكانة النبي-صلى الله عليه وسلم-، وقد ورد أن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-قال كما ورد-في البخاري والموطأ-عن سورة الفتح: ((لَقَدْ

أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)) {ثُمَّ قَرَأَ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)}[١] .

وهي أحب إليه-صلَّى الله عليه وسلَّم-مما طلعت عليه الشمس-والله أعلم-لما اشتملت عليه من قوله-سبحانه وتعالى-: {لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}.

وقد أخرج مسلم والترمذي عن أنس-رضي الله عنه-: {لَمَّا نَزَلَتْ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ} إِلَى قَوْلِهِ {فَوْزًا عَظِيمًا} مَرْجِعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ"، -يعني وقت رجوعه من الحديبية كما يقول أنس رضي الله عنه- فقال: ((لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا))[٢].

فهذا مما يجعل لهذه السورة مكانة في نفوسنا، أن النبي-صلى الله عليه وسلم-يقول إنها أحب إليه مما على وجه الأرض، والأمر بيّن واضح، إذًا هذه السورة لها علاقة بواقعة الحديبية، ومعلوم ما حصل في الحديبية من خروج المسلمين من المدينة إلى مكة يريدون العمرة فردتهم قريش واعتذرت باعتذارات كثيرة، وخرجوا في ذاك الموقف بأمور عظيمة في صالح المسلمين، من أعظمها أن الحديبية كانت فتحًا لمن يفقه أفعال الله.

وقد رُوي أن المسور بن مخرمة-رضي الله عنه-ومروان بن الحكم قالا: "نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية وَقَدْ حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نُسُكِنَا، قَالَ: فَنَحْنُ بَيْنَ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ" يحزنون ويكتئبون أن رُدوا عن البيت العظيم، فإن من عرف هذا البيت، عرف الشوق! وعرف ما معنى أن يقطع عليه قاطع ويمنعه مانع من الوصول إلى البيت، نعوذ بالله أن يقطعنا قاطع أو يمنعنا مانع.

قَالَ: فَنَحْنُ بَيْنَ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ-عَزَّ وَجَلَّ-: {لَمَّا نَزَلَتْ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ} إِلَى قَوْلِهِ: {مُسْتَقِيمًا}، أَوْ كَمَا شَاءَ اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-: ((لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا، وَقَالَ عَاصِمٌ: آيَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا))[٣].

فالمعنى أنهم كانوا في حالة ضيق، يقول الصحابة: نحن بين الحزن والكآبة، فهذه حال نزول السورة وهذه الحال تُنبئنا نبًا عظيمًا:

أن الله اللطيف الخبير الحكيم العليم يقدر الأمور بحكمة وبلطف، فضيق تصور الإنسان الحقائق يجعله عندما تأتي عليه أحداث وتقطعه عن الوصول خصوصًا لو كان صاحب طاعة وإيمان، وتأتي عليه أحداث تقطعه عن الوصول

١() صحيح البخاري(٤١٧٧).

(٢) صحيح مسلم(٤٧٣٧).

(٣) مستخرج أبي عوانة.

عن مراد الله، حزنه في مكانه، كآبته أن انقطع عليه باب من أبواب الخير في مكانه، لكن ما ألطف الله، ما أرحمه بعباده! ينزل القضاء وينزل معه ما يكون بردًا وسلامًا على من قضى عليه، إنه يعامل خلقه بعظيم رحمته ولطفه، فهل من مثنٍ عليه، شاكر لنعمائه، واثق في حكمته في قضائه؟!

اللهم اجعلنا من أولئك الذين يحسنون الظنّ بك، فإن سوء الظنّ بالله من أعظم الجرائم، وقد أشير إليه في هذه السورة الأَحْزَابَ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} كلهم يشتركون في ماذا؟ {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ} عليهم من الله ما يستحقون، {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)} نعوذ بالله، ونكرر استعاذتنا به من سوء الظنون، لابد أن نخرج بهذه النتيجة المهمة: الذي يصرفنا في السماء عليم حكيم، ربٌّ لطيف ونحن نعيش في آثار حلمه وستره ولطفه ونشهد بذلك.

نبدأ من أول السورة في ذكر أغراضها لكي نصل إلى خاتمتها التي هي مقصدنا في ذكر ما مثل به المثل الذي ضرب للصحابة في السورة.

تضمّنت هذه السورة بشارة للنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-والمؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية، وسماه الله نصرًا وفتحًا، فهذه التسمية ماذا فعلت في المؤمنين؟

هم كانوا بين الحزن والكآبة، فنزلت بذلك السكينة على قلوب المؤمنين، وأزال الله-عزَّ وجلَّ-حزنهم الذي وقع في قلوبهم بسبب صدهم عن الاعتمار بالبيت، لما رجع المسلمون عادوا كالخائبين، هذه صورتهم، فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وأن دائرة السوء على المشركين والمنافقين، وأظهر كرامة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-عند ربه، وأثنى على المؤمنين الذين عزروه وبايعوه، وأن الله قد قدم مثلهم في التوراة وفي الإنجيل، وهذا ما تحتويه هذه السورة، ذكر في السورة البيعة التي حصلت في الحديبية، وذكر في السورة فضح الأعراب الذين تخلفوا، وكيف أن الله منعهم من المشاركة في غزوة خيبر وأنبأهم أنهم سيدعون إلى جهاد آخر فإن استجابوا غفر لهم عن تخلفهم عن الحديبية، وأيضا هذه فيها شهادة لمكانة أبي بكر-رضي الله عنه-، وهذا أيضا يحتاج لفهم دقيق لمعرفة ذلك، نرجو من الله أن يبارك في الأوقات ويبارك في الأعمار فنفهم كتابه العظيم.

المقصود أن السورة بدأت بقوله تعالى: {لَمَّا نَزَلَتْ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ} المغفرة ستأتي من الله لعبده الذي له مكانته عند ربه، فهذا الفتح لكي يتمم له-صلَّى الله عليه وسلَّم-المكانة العليا وهو-صلَّى الله عليه وسلَّم-خاتم الأنبياء وخليل الله، له مكانته العظيمة عند ربه، فأتى هذا الفتح، وأتى رضاه-صلَّى الله عليه وسلَّم-بفعل الله، كل هذا أتى لرفع مكانته-صلى الله عليه وسلم-. فكانت مغفرة الله له أحب إليه من كل شيء {لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}.

ومع هذه المغفرة هناك تمام النعمة، ومع تمام النعمة الهداية إلى الصراط المستقيم، ومع ذلك النصر العزيز، فكيف يُرَدّون عن البيت ويكون فتحًا؟ ولذلك ورد في الحديث لما نزلت هذه الآية قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: أَوَ فَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ))(١) فالناس كيف يفكرون لو كانوا في هذا الموقف؟ كيف يقدرونه؟

فلنفهم كيف يُقدر مثل هذا الموقف، وصل النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-إلى مكة، وكان يريد العمرة، رُدّ عنها! لكن لما رُدّ عنها كان لهم أن يقضوها السنة القادمة، ثم أعطوا الأمان وعادوا سالمين غانمين إلى ديارهم مأجورين، وقد مرّ يوم أحد وحصل منهم ما حصل لكن هنا الله-عزَّ وجلَّ-ردّهم سالمين غانمين، ثم حصل بعد هذا الأمن أمرًا عظيمًا وهو أن الناس دخل بعضهم في بعض، فاستطاعوا أن يدخلوا البوادي، واستطاعوا أن ينشروا الدين، واستطاعوا أن يكونوا في أمن في حالهم، فهذا كله من عطايا الله التي قدر أن تكون بهذه الطريقة.

ثم إنهم لما ذهبوا إلى الحديبية كانوا ألف وثلاث مائة، فلما عادوا في فتح مكة عادوا عشرة آلاف! وهذا كله من فضل الله على المؤمنين، وكيف أنهم لما امتثلوا الأمر، ورضوا بقضاء الله، وظنّوا في الله الظنّ الحسن، ما كان إلا عطية من الله وهبهم هذا الفتح العظيم. ولذلك كلمهم وكلموه-صلَّى الله عليه وسلَّم-وراجعوه حزنًا وانتصارًا للدين وليس هربًا وخوفًا، وقد قيل إن الصحابة بعدما كلمهم النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وكلموه وراجعوه وراجعهم-صلَّى الله عليه وسلَّم-كما روى البيهقي عن عروة بن الزبير أنهم قالوا له: "صدق الله ورسوله وهو أعظم الفتوح، والله يا رسول الله ما ذكَّرنا فيما ذكرت، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا"(٢)، فهذا من تمام رفعة منزلتهم-رضي الله عنهم-.

ونقرأ في هذه السورة كما كان مطلعها بيان مكانة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وما يعطيه ربه يأتي في الآيات:

---

(١) المستدرك على الصحيحين، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(٢) رواه البيهقي في "دلائل النبوة".

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨)} هذا من مكانة النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-عند ربه {شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} ثلاثة صفات غاية في الأهمية، {أَرْسَلْنَاكَ} تشهد على الأمة بالتبليغ، والنتيجة، لا يُعذر المخالفون عن الشريعة، وهذه الشهادة حاصلة في الدنيا ويوم القيامة.

فإذا أُرسل-صلَّى الله عليه وسلَّم-شاهدًا، إذًا معناه أنه سيُبلغ الدين، وسيترتب على هذا التبليغ أنه مبشر للمطيعين ونذير للعاصين على اختلاف مراتب العصيان. تأتي الآية التي بعدها:

{لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩)} وهنا ذكر حقّ الله وحقّ الرسول-صلى الله عليه وسلم-:

- {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} الحقّ المشترك.
- {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} أي تعزّروا الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-وتوقّروه بمعنى تعظّموه وتجلّوه وتقوموا بحقوقه.
- {وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} أي تسبّحوا الله بكرة وأصيلا: أي أول النهار وآخره.

ففي هذه الآية ذكر الحق المشترك بين الله وبين رسوله وهو الإيمان بهما، والحق الخاص بالنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وهو التعزير والتوقير، والحق الخاص بالله وهو التسبيح له-سبحانه وتعالى-والتقديس، وبذلك نعلم أن الأمور بهذه الطريقة:

١. حق الله.
٢. حق النبي-صلى الله عليه وسلم-.
٣. ثم تأتي بقية الحقوق.

وعلى كل حال هذا الأمر متبيّن في كثير من الشرائع، فإذا نظرنا مثلا للتحيات خاتمة الصلاة سنجد الأمر يبتدئ بحق الله-عزّ وجلّ-، ثم حق النبي-صلى الله عليه وسلم-، ثم حق نفسك والمسلمين، فأنت تُحيي الله وتقول: (التحيات لله) وتشهد أن لا إله إلا الله، ثم تصلي على النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وتطلب من الله وتدعو الله أن يصلي عليه كما صلى على إبراهيم، ثم إنك تدعو لنفسك، وهذا موطن من أعظم مواطن الدعاء في الصلاة ألا وهو بعد الصلاة الإبراهيمية.

ننظر إلى الصلاة على الميت بنفس الطريقة: (تقرأ الفاتحة) هذا حق الله، (تصلي على الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-)في التكبيرة الثانية هذا حق الرسول، ثم (تدعو للميت) وتخص المسلمين بالدعاء فهذا حقك وحق المسلمين.

فإذا علمنا هذا بقي علينا أن نسير على هذا الأمر في كل شيء، قدّم حق الله على جميع الحقوق ثم حق النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-ثم حقك وحق المسلمين، والأمر الحمد لله غاية في الوضوح، وهذا الدين غاية في اليسر، بفضل الله-عزَّ وجل وكل الذي نحتاجه أن نكون صادقين ونحن نتعامل مع الله فلا نضيع حق الله ولا حق النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-ولا حق أصحابه.

إلى أن نصل إلى خاتمة السورة التي هي مقصدنا، ختمت هذه السورة العظيمة كما ابتدأت بالثناء على النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-والثناء على المؤمنين، فبعدما أخبر الله-سبحانه وتعالى-بالنصر {وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)} قال: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} هذا في مطلع السورة {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ} إذًا هذا حظ المسلمين من هذا الفتح، فإن المؤمنين هم جنود الله الذين قد نصر النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-بهم {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ}(١) فهنا ذكرت عناية الله بإصلاح نفوسهم وإذهاب خواطر الشيطان عنهم كما فتح الله للنبي فتحًا مبينًا وغفر له وأتمّ نعمته وهداه ونصره قال: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ}، إذًا هنا عناية الله بإصلاح نفوس المؤمنين وإذهاب خواطر الشيطان عنهم، وقد ألهمهم الحق وثبتهم وثبت عزائمهم وثبت هذه العزائم وأقرّ الإيمان في القلوب، كل هذا من فضله-سبحانه وتعالى-على المؤمنين.

في بداية الأمر وقع أن المؤمنين تبلبلت نفوسهم، جاؤوا للعمرة، ظنوا أنهم لا يعودون، رُدّوا، كانت الصورة كأنهم انتصروا عليهم، ثم سُمّي هذا فتحًا، ثم تداولوا الأمر تداولوا الأمر إلى أن اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب، ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك، فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقوا كاسفي البال شديدي الاضطراب، فذلك الاطمئنان الذي حصل لهم هو الذي سماه الله بالسكينة، وسمى إحداثه في نفوسهم إنزالًا للسكينة في قلوبهم، فالله أنزلها إنزالًا.

(١) [سورة الأنفال: ٦٢].

إذًا هذا النصر والفتح العظيم كان من تفاصيله أن الله أنزل السكينة على صحابة النبي–صلى الله عليه وسلم–، وهذا أمر عظيم، إنزال السكينة على المؤمنين نصر؛ لأنه يحصل به تأليف قلوبهم مع أنهم مِن قبائل شتّى، وكان حالهم في الجاهلية حال، لكن الله–عزَّ وجلَّ–نصر نبيه بإنزال السكينة وتأليف القلوب، وهذه السكينة التي نزلت أمرها عجيب، فإن زوال ما يلقيه الشيطان في النفوس واليقين بوعد الله يحول الاضطراب الشديد الذي يكون في القلب إلى سكون تام، فلذلك سميت سكينة، لماذا؟

لأن هناك اضطراب (اضطراب) كأنه حركة في القلب، فحينما تأتي الثقة بالله كأنه يسكن ويتوقف، يزول ما خامر العقول من وساوس الشيطان، ويدخل إلى القلب اليقين بوعد الرحمن، تنقشع الغمة، يذهب ما يمكن أن يشكك الإنسان في الحق؛ لأنه لو شك في الحق يلتحق بالمنافقين الظانين بالله ظن السوء، لكن من لطف الله بالخلق أن يعطيهم هذه السكينة العجيبة التي هي نعمة عظيمة يستحقها من عرف الله، وتفكّر في عظمته وآلائه ودعاه، ودعاه وألحّ عليه في الدعاء، خصوصًا في مثل هذه الأيام الفاضلة، فإننا نرجو من الله وهو العظيم الكريم أن يثبت الإيمان في قلوبنا، وأن ينزل علينا برد اليقين، ويذيقنا السكينة التي يذوقها المؤمنون، فإن هذا من أعظم عطايا الله للخلق.

وإنه يؤسفنا أن نسمع اليوم بعد اليوم من السفهاء الذين فقدوا عقولهم يسجلون مقاطع وينزلونها ويكتبون تحتها: (لماذا تركت الإسلام، لماذا ارتدت عن الاسلام؟!) كلها كلمات كفرية، فسق!! عندما تسمعهم تعرف أنهم مضطربون، أقل كلمة تقولها في حقهم إنهم مرضى نفسيون، فمن ذاق برد اليقين ذاق النعيم المقيم، فنسأله وهو مالك القلوب أن يثبت علينا الإيمان في قلوبنا، وأن يصرف عنا الشك صرفًا، ما لنا إلا الالتجاء إليه والثناء عليه والفقر بين يديه.

المقصد من هذه الإشارة بيان أن مطلع السورة وخاتمتها منطبقين في المقصود، فمطلع السورة فيه ثناء على الرسول وعلى المؤمنين.

فالخطاب للنبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} {لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ} {وَيَهْدِيَكَ} {وَيَنصُرَكَ} كل هذا للنبي الكريم.

والمؤمنون كان حظهم من هذا الفتح إنزال السكينة في قلوبهم الْأَجْزَاءِ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا} فما ألطفك بالمؤمنين، وإن سبب زيادة الإيمان هنا هو إنزال السكينة، فهو الذي يسبب لعباده أسباب زيادة الإيمان، فنسأل الله-عزَّ وجلَّ- أن يسبب لنا أسباب زيادة الإيمان.

إلى أن نصل إلى الخاتمة التي هي مقصدنا، التي فيها ثناء على الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-وعلى صحابته الكرام:

يقول-سبحانه وتعالى-: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} وهذا أعظم ثناء يُثنى به على النبي الكريم، أنه رسول الله حقًّا لا مرية في ذلك، فهو الصادق، والله أراد إظهار دينه على الدين كله.

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} عنايةً واهتمامًا يذكر الله-عزَّ وجلَّ-مناقبه-صلى الله عليه وسلم-، وهذا أيضًا فيه إشارة لطيفة لما حصل في الحديبية من امتناع المشركين من أن يكتبوا في صحيفة الصلح ((هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)) وقالوا: ((لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ!))[1] كذبوا والله وإنهم ليعلمون أنه رسول الله، فقال الله في الثناء عليه: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}.

ويأتي الشرف العظيم للصحابة الكرام فيقول في حقهم: {وَالَّذِينَ مَعَهُ} ثناء على أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، {وَالَّذِينَ مَعَهُ} يصاحبونه صحبة طيبة بالطاعة والتأييد، فالمراد الصحابة كلهم وابتداء بمن كان في صلح الحديبية.

إذًا معنى هذا أنه يكفينا في الثناء على أصحاب رسول الله-صلَّى الله عليه وسلَّم-أن نسمع أن محمدًا رسول من الله، وهناك مَن هم معه، والذين معه ما بهم؟ لهم صفات، صفات الكمال، والذين معه سيكونون هم أيضًا ممن أرسلهم الله، بأي شيء أرسلهم؟ كلفهم الله-سبحانه وتعالى-بنشر الهدى والتوحيد.

والمعنى هنا أنهم تحملوا ميراث النبوة، فهم كما كان الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-يرسل إلى البوادي والمدن فيقول الرجل منهم يعرف نفسه، يقول: رسول رسول الله، فمحمد رسول الله الرسول العظيم، والذين معه، ووصفت هذه الصفات لهم، هم أيضًا يتحملون هذه الرسالة، وقد تحملوها أحسن تحمل، تحملوها خير تحمل، تحملوها أحسن مما

(١) صحيح البخاري (٢٧٣١).

يكون تحمل مهما تكلم وتكلم المنافقين، الذين أصبح اليوم لهم دولًا تحميهم، لكن عليهم من الله ما يستحقون، **أيثني الله على رسوله وصحابته الكرام، ثم يأتون فيغمزون ويكذبون؟!** لكن عليهم من الله ما يستحقون.

وصفهم الله أنهم {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصف مدح؛ لأن المؤمنين الذين مع النبي محمد-صلَّى الله عليه وسلَّم-هم فئة الحق هم الذين نشروا الإسلام، هم الذين أظهروا الغضب لله، والحب في الله، والبغض في الله، هم الذين عرفوا الايمان وعرفوا الغضب لله.

أصحاب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-هم أقوى المؤمنين إيمانًا، أشرقت عليهم أنوار النبوة، قلوبهم أضاءت بنور الله، لا جرم أن يكونوا أشداء على الكفار، فإن بين نفوس المؤمنين والكافرين تمام المضادة، ولم تكن كراهيتهم بسبب مواقف شخصية بينهم، وإنما كراهيتهم مبنية على كراهية الشرك، الانزعاج الشديد من التعدّي على حقّ الله، الانزعاج الشديد من أن يُدعى أحد غير الله، الضيق الذي يصيب القلوب عندما تسمع أحدًا يتكلم عن الله بسوء، أليس هذا يسبب الشدة؟ هؤلاء قوم أشرقت عليهم أنوار النبوة، فما كان منهم إلا أن كانوا أشداء على الكفار.

واسمع في تاريخهم، اسمع في تاريخ الصحابة العظام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، اسمع في تاريخ هؤلاء أنهم خير من مثّلوا الإيمان، وهؤلاء الأشداء على الكفار، هذه الصفة صفة الكمال لهم، ربما فيها إلماح إلى موقفهم ومحاورتهم في إبائهم الصلح مع قريش، ربما كان هذا من شدتهم على الكفار، وكان أشدّهم عمر-رضي الله عنه-، وكان أفهمهم للمصلحة التي توخاها النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-في إبرام الصلح أبا بكر، فسبحان الله كيف فارق الله بين نفوسهم وكلهم على الخير والصلاح؛ ولذلك كان سهل بن حنيف يوم صفين يقول: ((أيها الناس اتَّهِمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ نَسْتَطِيعُ نَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ-صلَّى الله عليه وسلَّم-فعله لَرَدَدْنَاهُ))[1] أي من شدة بغضهم للكفار كانوا يتمنون أن يقاتلوهم.

في مقابل هذا الوصف {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} وما أعظم هذه الرحمة التي ليست مبنية على المصالح ولا على الهوى، وإنما من أخوة الإيمان في نفوسهم، فأخوة الإيمان تكون الرحمة لابد، وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول-صلى الله عليه وسلم-.

١() صحيح البخاري(٤١٨٩).

والعجب هنا أن يجتمع أمران–خلتان متضادتان–: الشدة والرحمة، وهذا إيماء إلى أصالة آرائهم، إلى حكمة عقولهم، وأنهم هم يتصرفون في أخلاقهم ولا يميلون ميلة واحدة، فتراهم يطلبون السلام مع كل أحد، والناس يمكرون بهم وهم يطلبون معهم السلام، إنما أعمالهم وتصرفاتهم فيها الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يتصرفون فقط بالجبلة إنما يؤدبون أنفسهم تأدبًا، لذلك الله–عزَّ وجلَّ–في سورة المائدة ذكر هذه الصفة على المدح {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}[1] معنى ذلك أنهم رحماء بينهم، كما قال النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ))[2] لذلك من رحمتنا بإخواننا في كل مكان أن نستغيث الله أن يرحمهم وينزل عليهم الرحمات، عاجزين عن مد أيدينا إليهم بالعون، لكن استغاثتنا بالله أعظم تعبير عن حبنا له، ولا تقل: لا أملك إلا الدعاء، بل قل: **(إني أملك أعظم سلاح إنه الدعاء!)**.

{تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} الصحابة الكرام أهم ميزاتهم أنهم بصلاتهم معتنين وبذلهم وخشوعهم وانكسارهم موصوفين، وقد قال فيهم الله–عزَّ وجلَّ–ما يغني عن الثناء عليهم إلا أننا نسمع من بعدهم يقولون كما قال أبو العالية: "يسجدون على التراب لا على الأثواب"، إنهم قوم سجدوا على الحصى والتراب، وكان مسجد النبي مما عُرف في بنائه، وقد ورد حتى في ليلة القدر أن النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–يسجد في ماء وطين! فأيّ ذلٍّ هذا لله وأيّ فرح بالإيمان؟!

وُصفوا بهذه الصفة وهي كثرة الصلاة {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} ماذا يريدون؟ {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}، فما أعظم هذه الصفة وما أشدّ حاجتنا لإظهارها للناس!

كانوا ركّعًا سجّدًا أهل طاعة يمدحهم الله، فكيف تذمّهم أيها المنافق؟!!.

{يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}، كم للإخلاص من عمل في قلوبهم؟! كم أثر الاخلاص في قلوبهم، يقول الله في وصفهم {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}، شهد الله لهم بالإخلاص أنهم لا يريدون بذلك إلا وجهه.

{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} ذكر الله–عزَّ وجلَّ–إخلاصهم، ثم ذكر أن سيماهم في وجوههم، المعنى: أن هذه السِّمة الظاهرة في الوجه كانت لهم في الدنيا، وستكون لهم يوم القيامة، فيوم القيامة يأتون وهم بيض

(١) [سورة المائدة: ٥٤]

(٢) صحيح البخاري (٦٠١١).

الوجوه كالقمر ليلة البدر يجعلها الله كرامة لهم، فما أعظم أحوالهم! من كثرة صلاتهم بالليل حسنت وجوههم بالنهار، وهذا أمر يعطيه الله-عزَّ وجلَّ-لمن شاء، ولكن هم لهم القدح المعلى في ذلك، {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} هذه الطاعة بالذات التي هي الصلاة تورث الوجه نورًا يراه أهل الايمان في الدنيا وفي الآخرة.

يقول الله-عزّ وجلّ-: {ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} هذا الأمر العجيب أن يُشار إلى وصفهم في التوراة قبل أن يكونوا، لابد أن نتعجب، يوصف النبي ويوصف أصحابه كأنهم حاضرين لمن كان قبلهم، ويقال: انظروا لهؤلاء هم خير الخلق! فجاء في التوراة ذكر مجيء النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-وجاء في التوراة وصف أصحاب-النبي صلى الله عليه وسلم-، فما أعجب حال من يقع في أعراضهم! ما أعجب حاله!

زكاهم الله في كتابه وفي الكتب السابقة، واختارهم واصطفاهم، فتأتي وتتجرّأ عليهم؟! عجب! ولكن نسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يثبت علينا الإيمان، إن القوم جرّوا وراء أهوائهم وما تشابه عليهم دون أن يطلبوا من الله أن يدلّهم الحق.

هذا مثلهم في التوراة، نرى مثلهم في الإنجيل، وما أعجب مثلهم في الإنجيل:

{وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ} ما معنى كزرع؟ هنا تمثيل، أي مثل، شُبّه الصحابة بالزرع وما فيه من الخير، وكيف دخل الإيمان في قلوبهم فنما كنموّ الزرع، ثم هم ينمون الإيمان في قلوب غيرهم بالدعوة حتى يكثر المؤمنون كما تنبت من الحبة مائة سنبة، وكما تنبت من النواة الشجرة العظيمة.

{كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ} هذه الحبة ماذا حصل فيها؟ خرجت وتفرعت ونما بجانب الأصل شجرات صغيرة.

والشطأ هو فراخ الزرع، وفروع الحبة، فروع صغيرة، أي تأتي ساق متينة والحبة هذه أيضًا تخرج زروعًا وفروعًا صغيرة.

فآزره: أي قواه، مؤازرة من المعاونة.

المعنى أن عندي بذرة أخرجت ساقًا، هذه الساق خرج بجانبها فراخ الزرع، فروع الحبة، فماذا حصل؟ نتيجة وجودها معًا حصلت المؤازرة، أي اشتدّ بعضهم ببعض.

{فَاسْتَغْلَظَ} استغلظ أي أصبح قويًّا غليظًا.

{فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ} والسوق جمع ساق، وساق الزرع والشجرة أي الأصل التي تخرج فيه الأغصان أو السنابل.

{يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} هذا التمثيل ما معناه؟ هذا تشبيه حال المسلمين في بدايتهم ونماؤهم حتى كثروا وانتشروا، فهذا يتضمّن بدء دين الإسلام ضعيفًا وكيف كان يتقوّى يومًا بعد يوم حتى استحكم أمره وتغلب على أعدائه، فلننظر في تفاصيل المثل:

شبّه الله-عزَّ وجلَّ-أصحاب النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-بالزرع، والنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-زَرع في قلوبهم الإيمان، وكانوا هؤلاء المؤمنين الأوائل حبات الزرع التي بذرت في الأرض، الأوائل من المؤمنين أبي بكر رضي الله عنه وخديجة وعمار وبلال وعمار وكل من ابتدأ بالإسلام، ثم أتى هذا الفرع الشطأ الذين اجتمعوا وأيدوا المسلمين وانضم بعضهم إلى بعض، ثم قواه الله بأكثر وأكثر كما يُقوي الزرع الأساسي بما يلتف حوله ويتولد منه من زروع تقوي الساق، هذا يصل إلى حال {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}.

إذًا هم قوم يُغاظ منهم، ما صفة الذي يُغتاظ منهم؟ الكفار يغتاظون منهم، لذلك قال مالك: "من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أصحاب الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-فقد أصابته هذه الآية"، إذًا هذا الزرع العظيم الذي كان صغيرًا ثم استغلظ واستوى على سوقه يغيظ قومًا، يغيظ الكفار، فهذا المثل فيه من وصف أحوالهم التي كانوا عليها من الضعف إلى القوة، ومن التسلط غيرهم إلى إغاظة غيرهم بهم، حال يخص الصحابة، ويشير إلى أمر مهم:

أن من سار على سيرهم لا يستعجب أنه سيمر بحالة فيها ضعف، ومن دعا بدعوتهم لا ينزعج من حالة فيها كرب، فإن الإيمان كالزرع، كحبة البذرة تنبت في قلوب الخلق، فإذا نبتت في هذا وهذا وهذا اجتمعت فاستغلظت فاستوت على سوقها.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} وهذا دليل على أن الله-عزَّ وجلَّ-يغفر لكل من استقام على الطريق وآمن وعمل الصالحات، يغفر له، وله أجر عظيم، وهم قادتنا وسادتنا ومن نرجو من الله أن يجمعنا بهم يوم الدين مع النبيين والصديقين والأنبياء والصالحين.

اللقاء السابع والعشرون

تفسير الآيات ٤٣ – ٥٥ من سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو اللقاء السابع والعشرون من اللقاءات الرمضانية لهذا العام ١٤٣٤هـ نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعله شهرًا مباركًا علينا نعتق فيه من النيران ونفوز فيه برضا الرحمن نحن ووالدينا وذرارينا والمسلمين. اللهم آمين.

وقد بدأنا في هذا الشهر المبارك في هذه الدروس التي نحتسبها على الله قربة إليه، **بدأنا بالكلام حول الإيمان:**

- العنصر الرئيس في صلاح النفس وفلاحها.
- الإيمان الذي هو جوهر الدين.

الإيمان بالله وبكمال صفاته، الإيمان برسله الذين أرسلهم، وكتبه التي أمر الرسل بإبلاغها للخلق، الإيمان بلقائه– سبحانه وتعالى–.

فكان هذا **الإيمان** هو أصل الدين وأصل صلاح الخلق، **ومن ظنّ أنه يصلح كشخص**، أو ظنّ أن المجتمع يصلح دون أن يكون الإيمان هو العنصر الرئيس في الدعوة والتعليم والعنصر الرئيس في النظر للحياة، **فقد ظنّ ظنًّا باطلًا**، ولابد أن يخسر مثل هذا جهوده في إصلاح نفسه وإصلاح غيره، فإنّ الإيمان يُبنى عليه كل عمل، وبه يتمّ كل صلاح للفرد والمجتمع.

ومن أعظم ما يُطلب الإيمان به ويؤمر ويُعاد ويوعظ ويُذكر به **الإيمان باليوم الآخر**، من أجل أن يتضاءل تعلق النفوس بالدنيا، وتفكر فيما بعد الموت، وإذا حصل هذا تُعير هذه النفوس آذانها لداعي الهدى، وتطلبه وتسعى وراءه، فتتهيأ لقبول الحق، وهذا الأمر يكاد يجهله أكثر الخلق (أن نفسك لن تتهيأ لقبول الحق إلا إذا عرفت ما وراء هذه الدار).

إنّ الموت الذي لابد أن نلاقيه يجب أن يكون غائبًا يشغل العقول، غائبًا يُنتظر في أية لحظة، وهذا سيسبب أن تتهيأ نفوسنا لقبول الحق، هذا يجعل من حاجاتنا النفسية الملحة أن نعرف كيف ننجو في تلك اللحظة، كيف

نكون نحن من الذين تقول لهم الملائكة {أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ}[٢] تقول لهم: { نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[٣].

كيف الطريق لهذا اللقاء؟ فإذا غاب ذكر الدار الآخرة عن العقل، تجد أن الإنسان يركب هواه ولا يحاسب نفسه على الكبير قبل أن يحاسبها على الصغير، ويطلق الكلام على عواهنه، ويتصرف التصرفات لمجرد أنها خطرت على باله، فلهذا ذكرى الدار الآخرة يجب ألا تغيب عن بالنا {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١)}[٤]، {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} أبعد هذا الوعظ وعظ؟! هل بعد هذا يستطيع معتذر أن يعتذر لربه أنه ما استعدّ لأنه لم يكن يعلم؟! كُرّر علينا الاقتراب.

وفي مدارستنا لسورة القمر نود في أول الأمر أن نعرف أن هذه السورة العظيمة

- كما أن فيها آية عظيمة على صدق النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–تسبب لنا زيادة الإيمان.
- كذلك فيها إشارة لأمر مهم وهو انقسام قلوب الخلق إلى لين وقاس، والسبب في قسوة القلب وعدم الاستجابة لنداء الرب، فهذا ظاهر في أول السورة.

يقول–سبحانه وتعالى–: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ} ومعنى اقترابها أمر غاية في الوضوح، {اقْتَرَبَتِ} فأصبحت قريبة.

{وَانشَقَّ الْقَمَرُ} وهذه إشارة إلى آية كبرى ومعجزة من معجزات النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–وهي معجزة انشقاق القمر، كما ورد في صحيح البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ–صلَّى الله عليه وسلَّم–أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ ، وفي رواية الترمذي زاد: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم–حَتَّى صَارَ فِرْقَتَيْنِ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ وَعَلَى هَذَا الْجَبَلِ...[٥].

---

(١) [سورة فصلت: ٣٠]

(٢) [سورة فصلت: ٣١]

(٣) [سورة الأنبياء: ١]

(٤) صحيح البخاري (٣٦٣٧).

(٥) سنن الترمذي (٣٢٨٩) قال الألباني: صحيح.

وهذه قصة من القصص المشهورة المتداولة المتناقلة المعلومة الصحة، وقد ورد في حديث ابن مسعود–رضي الله عنه–قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ–صلَّى الله عليه وسلَّم–فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةً فَوْقَ الْجَبَلِ وَفِرْقَةً دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم–: ((اشْهَدُوا))[1]. فهذا هو معنى قوله تعالى: {وانشق القمر}.

وانشقاق القمر الذي هو آية للنبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–**ما علاقته باقتراب الساعة؟** {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} فهذه إشارة–والله أعلم–إلى أن النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–النبي الكريم خاتم الأنبياء بُعث كما وصف–صلى الله عليه وسلم–: ((بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ))[2] فزمن بعثة النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–أحد إشارات قرب قيام الساعة، فالموعظة هنا أن نتفكّر في اقتراب الساعة، ساعتنا التي تخصنا قبل أن نفكر في الساعة العظيمة وهي ساعة قيام الخلق إلى ربهم.

وهذا الانشقاق علامة على صدق النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–من جهة، وفتنة لأولئك القوم من جهة أخرى، فإنهم لما طلبوا الآية وحصل انشقاق القمر مع أنهم رأوه بأعينهم إلا أنهم قالوا أن هذا {وَإِن يَرَوْا آيَةً} واضحة بينة، ردّهم عليها أنهم {يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ} ، أي أن محمد سَحركم بذلك، سحر أعينكم أيها الناظرين، فلما قالوا هذا الكلام، قالوا: هذا سحر محمد بن أبي كبشة، يعيبون النبي–صلى الله عليه وسلم–، وقالوا: قد سحر محمد القمر، وكلام من هذا النوع الذي فيه ردّ على الحق، سألوا المسافرين، أشير إليهم أن يسألوا المسافرين، فسألوهم، فتبيّن صدق النبي–صلى الله عليه وسلم–، فهؤلاء المسافرين لن يستطيع النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–أن يسحرهم وهم في أسفارهم، إن تمكّن منكم فلن يتمكّن من أولئك! لكن هؤلاء حتى لما سألوا المسافرين، أي أنهم رأوا انشقاق القمر فقالوا سحر، قيل لهم اسألوا المسافرين، {وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ} ، أي بلغ حتى أولئك القوم الذين كانوا مسافرين، الآن العلة أين كونهم يتهمون أن هذا سحر هذا معروف ومتكرر ومعهود قد حصل كثيرا، ولكن أين العلة؟

في نفوسهم: {وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} ، وهذه مصيبة المصائب، أي: أنهم يرون الآية البينة على صدق ما دعا إليه النبي–صلى الله عليه وسلم–، فماذا يفعلون؟ يكذبون اتباعًا للهوى، أي أن تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلا اتباع ما تهواه أنفسهم، على أي شيء؟ ماذا تهوى أنفسهم؟ أن تبقى حالهم على ما ألفوها وعهدوه واشتهوا دوامه؛ أي

(١) صحيح البخاري (٤٨٦٤).
(٢) صحيح البخاري (٦٥٠٤)، صحيح مسلم (٢٠٤٢).

مما يؤلمه الإنسان ويعظمه: إلفه وعادته، يكره أن يغيّر أحد له أفكاره وإن أتى له بالأدلة الصحيحة على هذا التغيير.

الآن هذه ليست دعوى لقبول أي فكر، ولكنها دعوى لأن تجعل فكرك مبنيًّا على الأدلة، فلما تؤمن أن هذا الكتاب هو الحق، تجعل فكرك ونظرك للأمور منه وليس من غيره، وليس ما ألفت أو اعتدت.

إذًا {وَكَذَّبُوا} والدافع لكذبهم اتباع أهوائهم، والهوى أمر إذا دخل بحر يمتزج به فيصيبه بالعفونة، إن للناس أهواء كثيرة تجعلهم يمتنعون من قبول الحق، مثل حب الرياسة، وأحيانًا حسد من استقام على ما آتاه الله، الإلف والعادة، وأحيانًا العناد والاعتداد بالرأي، كل هذه من الأهواء التي تسبب ردّ الحق، فيقال لهم ولكل من ردّ الحق من أجل هواه بعد أن تبينت لهم الآيات، يعني الآن لا يطلب منك أن تقبل كل دعوى حيث تبينت الآيات الله–عزَّ وجلَّ–يقول: {وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا}، هذا أولًا يعرضون عنها، آية واضحة بينة يعرضون ويتهمون الآية {وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ} ويكذبون، وهذا كله بسبب اتباع أهوائهم.

وهذه الكلمة **(اتباع الهوى)** تضجّ بها الأرض، وإن هناك قوم حسدوا أهل الاستقامة على الإيمان، حسدوا المصلين على صلاتهم، حسدوا المنفقين على إنفاقهم، فأصبحوا يغمزون ويهمزون في أهل الإنفاق والمصلين والعابدين والطائعين، يهمزون ويغمزون وأحيانًا بأمور فيها شيء من تلبيس الحق بالباطل، ولكن هذا كله مبني على أمر واحد وهو الهوى الذي يحكم الخلق.

إذا امتلأ القلب بالهوى، سَخر الإنسان كل ملكاته في الدفاع عن هواه والإعراض عن الآيات، إذًا {وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا}، معناه أنهم ليس قصدهم اتباع الحق والهدى.

يقولون: هات لنا آية تدلّ على صحة ما تدعيه، خذ الآية التي تدلّ على الصحة، استقبل الآية ما يستقبلها، ليس له قصد اتباع الحق والهوى، ولكن قصده يسكتك، أي يسكت الحق، قصدهم اتباع الهوى وليس لهم مقصد في اتباع الحق والهدى؛ ولذلك الله–عزَّ وجلَّ–يقول لنبيه: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ} ليست المشكلة في الآية التي معك {فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ}(١) فلو كان قصدهم اتباع الهدى كانوا مباشرة آمنوا؛ لأن مع النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–الآيات البينات لكن ليس لهم مقصد الإيمان فكانت هذه هي النتيجة.

(١) [سورة القصص: ٥٠].

ولذلك يقول الله–عزَّ وجلَّ–: المعنى: أن لكل أمر حقيقة، وهذه الحقيقة منها ما يظهر في الدنيا، ومنها ما سيكون في الآخرة ويُعرف، فيستقر قول المصدقين، ويستقر الصدق في قلوبهم، ويستقر قول الكاذبين المكذبين في نفوسهم، ثم يأتي اللقاء فيعرف المكذبون حقيقة الثواب والعقاب ويعرف الصادقون ما كانوا عليه من صدق.

ولذلك فيما يقال: أن رجلًا ملحدًا قال لمؤمن بالله وباليوم الآخر: ماذا سيكون شعورك لو عند الموت اكتشفت أن لا إله ولا آخرة؟! قال: لن يكون أسوأ من شعورك أنت لو اكتشفت أن هناك إله وهناك آخرة! وهذا هو الصحيح، فإن المؤمن إيمانه يدفعه لأن يستقر ويثبت ولا يتلجلج، لكن هذا المكذب الملحد يسعى وراء كل شيء يشكك غيره ويثبت لنفسه أنه لا خير في اعتقاد غيره، هذا استقر في قلبه وهذا استقر في قلبه.

{وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ} أنت يا مصدق استقر في قلبك التصديق وسيأتي اليوم الذي سيظهر فيه هذا الصدق، وأنت أيها المكذب المَعْميّ عن كل هذه الآيات وكل هذه التدبيرات سيأتي اليوم تنادي: يا رب نَجِّني فينجيك فتنكره! تناجي: يا رب ارزقني وأعطني فيعطيك، تراه يسخر لك الليل والنهار والشمس والقمر، أبدع الأرض على بديع الصنع وترى فيها من الثروات والعطايا، أعظم العطايا، ثم تنكر أن هذا كله يكون وراءه ثواب أو عقاب.

على كل حال لكل حديث منتهى، ولكل مجادلات بالباطل أو بالحق وقت يظهر فيه صدق الصادقين ويظهر فيه عدوان الظالمين، فإذا كان لكل أمر مستقر فلا يكن في نفسك حرج من أن تكون وحدك والناس عنك متفرقون، وأن تكون معك السكينة والطمأنينة والثقة والناس حولك مضطربون، فهذا من آثار الإيمان، أن تكون ممن سكن، فإن الله ينزل السكينة على خلقه.

ومن آثار عدم أو ضعف الإيمان أن ترى القوم مضطربين وهذا الاضطراب سببه أن هناك غليان في القلب بسبب عدم استقرار الاعتقاد الصحيح.

هذا الأمر مستقر سيكون استقراره بأهله يوم القيامة وسيقع ما أخبر الله–عزَّ وجلَّ–به.

ثم يقول–سبحانه وتعالى–: {وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)} الحكمة ظاهرة فيمن هداهم الله وفيمن أضلّهم، فما تغنِ النذر إذا كان قلب العبد معرضًا عن الله مهما كررت عليه

من الإنذار والوعيد لا تجده مستعدًّا للنذير ولا مستعدًّا لأن يسمع كلام البشير، إنما يرى هذه خرافات ويستسلم لهواه ويتبع ما كان يتبع قبل أن يصله الحق.

السورة أخبرت عن آية عظيمة كانت تكفي للإيمان لكنهم ردوها والسبب اتباع الهوى، فبعد هذا الخبر قال الله-عزّ وجلّ-: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ} أمرًا للنبي-صلى الله عليه وسلم-، وإنذارًا لما سيكون {يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦)} المكذبين هؤلاء إذا أصروا على شأنهم اتركهم وانتظر يومًا عظيمًا، هذا اليوم العظيم سيظهر فيه صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فإذا آمن به الإنسان-آمن بهذا اليوم العظيم-استقامت حياته، لكن ضعف الإيمان لهذا اليوم وعدم تصور الأحداث التي ستكون فيه هي السبب الرئيس الذي يجعل الإنسان لا يستقيم على دينه.

{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ} اتركهم، {يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦)}، ماذا سيكون حالهم؟ {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧)} المقصد أن هذه الأحداث ستكون فيها إيذان بغضب ووعيد، فالمؤمن يعرف أن هذا حق وأن الخلق سيكونون بهذه الحال {مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ} مسرعين إليه، {يَقُولُ الْكَافِرُونَ} هذا قول للكافرين والذين لم يصدقوا {هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} وهكذا تكون عليهم القيامة، تكون عليهم يوم عسر يدع الداعي إلى الأهوال، يحضرون إلى الحساب، يدعوهم الداعي لهذا الحساب، وهذا من الأمور العظيمة، يعني دعاء الداعي مؤذن بأنهم يحضرون إلى الحساب، وهذا مما يورث الفزع في القلب، يدعوهم أن تعالوا هلموا أن تحاسبوا على ما فعلتم.

والأمر الثاني: أنه يدعو إلى شيء عظيم؛ لأن {يَوْمَ يَدْعُ} فيه من الإبهام ما يشعر بأنه مهول.

الأمر الثالث: أنه وصف بأنه نكر، يعني: تنكره النفوس، تفزع منه، تخاف تستنكره، ليس أمرًا تعرفه.

الأمر الرابع: في هذا الوصف: {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ} يعني ذليلة ينظرون من طرف خفي، وهي نظرة الخائف المفتضح، فيه ذل، النظر يظهر فيه ذل الذليل وعزة العزيز، فهم أبصارهم ذليلة.

ثم وصفوا بأنهم {جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} يستتر بعضهم ببعض من شدة الخوف كثرة وحركة كأنهم جراد منتشر، كثير يتحركون يستتر بعضهم ببعض من الخوف.

{مُّهْطِعِينَ} يعني يمشون مشيًا سريعًا مادًا عنقه، وهي مشية المذعور ما يلتفت لأي شيء، ثم يقول: {هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} وهذا قول من أثر الموقف في نفوسهم، من أثر الخوف، عسر شديد صعب، وهذه الأهوال مُؤمَّن منها أهل

الإيمان الذين تتلقاهم الملائكة في قبورهم وعند خروجهم وحشرهم، فنسأل الله بمنّه وكرمه أن تكون الملائكة أولياءنا في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

خرجوا من قبورهم إلى الحشر من مواضع دفنهم في الأرض يخرجون وينبتون كما مر معنا سابقًا، ثم يخرجون وينتشرون كما انتشر الجراد، ففي هذا تشبيه هيئة خروجهم من القبور متراكمين كهيئة خروج الجراد، وهو أمر معروف لمن يعرف خروج الجراد كجماعات يتصور زحامهم وكون بعضهم فوق بعض.

ثم أتت الآيات تذكر تكذيب من قبلهم وأتى تكذيب قوم نوح–عليه السلام–: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ}

كذب قبل هؤلاء قوم نوح وتكلموا على نوح–عليه السلام–، ذكر الله قصتهم وذكر ما فعل في تعذيبهم وقال: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)} أخبرنا عن القصة إشارة إلى ما حصل لهم من هلاك بعد تكذيبهم فاعتبروا، والله يسّر القرآن لمن كان يريد أن يتعلم، فأقبل عليه وتعلم.

ثم مثله ذُكر قوم عاد {كَذَّبَتْ عَادٌ} أي كذبت عاد كما كذبت قوم نوح {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨)} إلى أن انتهت القصة بقوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} ثم ذكر قوم ثمود {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ} ذكر الله–عزَّ وجلَّ–دعواهم وما كان منهم، وموقفهم من الناقة، ثم ختم قصتهم بقوله: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} ثم ذكر–سبحانه وتعالى–قوم لوط: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣)} وذكر الله–عزَّ وجلَّ–ما حصل بينهم وبين نبيهم، ثم قال: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}.

وهذا كله فيه إشارات إلى أن من أراد الهدى فعليه أن يقرأ هذا الكتاب، قراءة متأمّل متفحص يريد أن يستقيم شأنه ويصلح قلبه، فيكون ممن آمن واستقام، **ولا طريق للإيمان والاستقامة إلا بالانكباب على هذا الكتاب**.

إلى أن ختم هؤلاء الأقوام وما حصل بينهم وبين رسلهم وكيف أن الله–عزَّ وجلَّ–جعلهم عبرة وأذاع شأنهم والناس كلهم يتداولون ما حصل لهم، وديارهم تشهد بآثارهم، ختم بذكر آل فرعون، كيف أنهم {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)} إلى أن نصل إلى مقصدنا اليوم من الآيات وهي خاتمة السورة، بعد أن مررنا على مطلعها، سنلاحظ أمرًا مهمًا: أن السورة ابتدأت بالكلام عن اقتراب الساعة، وعلامة صدق النبي–صلى الله عليه وسلم–، وكيف أن المكذبين ردوا بسبب أهوائهم وما سيكونون عليهم يوم القيامة، ختمت السورة بمخاطبة هؤلاء المكذبين، ووصف حال المؤمنين يوم تقوم الساعة ويستقر أهل الجنة في الجنة نسأل الله من فضله، ويستقر أهل النار في النار نعوذ بالله من الخذلان.

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)}[1].

{أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ} يعني: يا قريش يا من كفرتم بعدها {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ} من أولئك القوم {أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ}.

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

"والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس والمكذبين لمحمد–صلى الله عليه وسلم–؛ ولهذا قال: {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ} أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيرا منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شرا منهم، فليسوا بخير منهم".

يعني: يا من كذبت محمد أنت لست خيرًا من قبلك لكي تنجو من العذاب، هذا إذا لم تكن شرا ممن قبلك.

"{أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} أي: أم أعطاكم الله عهدا وميثاقا في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟".

أي: إما أنكم خير فتكونوا من دماء زكية فلا يصيبكم العذاب، أم أنكم قد عهد الله عليكم أنكم لا تعذبون مهما فعلتم.

(١) [سورة القمر: ٤٣ – ٥٥]

"وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلا وشرعا، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: {نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ} ".

يعني: كأنهم يتقوون على قدرة الله، ثلاثة أمور:

١. إذا لم تعتبروا بمن قبلكم الذين هلكوا ماذا تظنون؟ أكفاركم خير من أولئكم؟ هذا الاحتمال الأول وقد انتفى.
٢. أم لكم براءة في الزبر وهذا أيضًا انتفى. حسنًا، ماذا بقي؟
٣. أم يقولون نحن جميع منتصر، وهذا الذي بقي من أقوالهم.

"قال تعالى مبينا لضعفهم، وأنهم مهزومون: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر".

فهذه السورة مكية، نزلت في مكة وحصل انشقاق القمر في مكة، وانهزامهم كان في بدر، وهذا دليل على أن {وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} أي: يستقر الإيمان في قلوب أهل الإيمان وينمو، ويستقر الكفر في قلوب أهل الكفر ويبقى، ثم يقضي الله–عزَّ وجلَّ–في كل منهم.

"وقتل من صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين.

ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته؛ ولهذا قال: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ} الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط."

ثم وصفت الساعة {وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} إذًا هذه الحقيقة التي لابد أن يعرفها كل من يفكر في شأن أهل الكفر، أنهم ليسوا خيرا ممن قبلهم، وليست لهم براءة، ولا تتصور أنهم جمع ينتصرون ولا يغلبون، وأن معهم من الآلات ما يردون به عذاب الله، لو فتشنا في القوم الذين مضوا، كم ادعوا أنهم أصحاب قوة أو أصحاب سلطان أو أصحاب مال أو أصحاب جنود، وانظر إلى الأقوام الذين ذكروا في السورة ستفهم هذا جيدا وتعرف أنه لا عظيم إلا الله، وهؤلاء اختبروا بأن مكنهم الله، {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} ، فهذا وعد، ووعد سوء، أي أن هذا

وعيد من الله–عزّ جلّ–لهم {أَدْهَى} بمعنى أنّ الساعة أشدّ إصابة بداهية الخلود في النار من داهية عذاب الدنيا بالقتل والأسر، وأمرّ: أشد مرارة.

يقول الشيخ: "{وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} أي: أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال".

فهذا العذاب الذي يقع عليهم في الدنيا إذا قورن بما في يوم القيامة سيكون لا شيء {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} فيها من المرارة ما تجعل الإنسان لا يستطيب شيئا وهم لا يستطيبون شيئا.

"{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ} أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي {فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} أي: هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم".

إذًا هنا وصف: إن المجرمين لهم وصفين، في ضلال هنا وفي سعر هناك، ثم وُصف ما سيكون:

"{يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم:

{ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها".

وهذا كله تخويفًا لهم مما سيكون، ومنعًا لهم من الاغترار، فسيحسون هؤلاء بأشد العذاب، {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} وسقر هي جهنم، والسقر هو التهاب في النار، فالمقصود أن هذا كله تخويف لهم من اختيارهم الضلال، فحالهم في الدنيا الضلال، وحالهم في الآخرة السعير، وهذا إنما هو جزاء لاختيارهم، فكأن السياق يخوف من هذا الاختيار، كن على حذر من أن تضل، أن تضل في علمك وفي عملك.

"{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها.

وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير".

والمعنى: سمعت من قبل بوعيد ونذير وعليك أن تعتبر بما حل بالمكذبين، فالله–عزَّ وجلَّ–خلقنا وفعل كل ما ذكر من الأفعال وأسبابها وآلاتها، ويسّر لنا كل الأمور التي نصل بها، فكل شيء خلقه مقدّر تقديرًا ينتفع به الخلق إن كشفت عنهم غفلتهم، فلا تكن ممن أصابتك الغمة وصرفتك عن الحق، خلق الله الأشياء ولها قوانينها الجارية وكلها جارية على الحكمة، ومن حكمته–سبحانه وتعالى–أنه جعل الدنيا اختبار والآخرة دار القرار، فلا تظن أبدًا أن الله خلق الخلق عبثًا، هذا من الحسابات الباطلة، {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}(١).

ومثل قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)}(٢) ، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)}(٣) ، إذًا كل هذه الآيات يذكّر الله–عزَّ وجلَّ–فيها الخلق أنه خلق لحكمة، ثم يذكر الساعة ويوم الجزاء، فالمعنى: عش هذه الحياة وأنت تنتظر يوم الجزاء، وهنا قيل لنا {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)}.

"فلهذا قال: {وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} فإذا أراد شيئا قال له كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة".

ومن ذلك القيامة، فتقوم ويجتمع الخلق كلهم في مكان واحد ويحاسبهم سبحانه وتعالى، وكل ذلك إنما هو بأمره وهو واحدة كلمح بالبصر، فهو العليم القدير، وهو الحكيم الخبير، فلا تقس الملك العظيم بشأننا نحن الفقراء الناقصين.

يقول سبحانه وتعالى: **"{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ} من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتم {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}".**

يعني كما أن المطلوب أن تتذكر القرآن الآيات الشرعية، كذلك مطلوب منك أن تجعل التاريخ بين عينيك، وسنرى كيف يداول الله بين الأمم، وكيف يكون حال من يتبع السنَّة وما أمر الله كيف يحفظه الله ويحميه، وكيف يكون حال من يخالف السنَّة، ويخالف أمر الله وأمر رسوله كيف يقع عليه من الوبال ما يقع، وانظر حولك، وانظر في التاريخ، ستعرف الحقيقة، أنه لا أحد يخالف أمر الله إلا تقع عليه سنَّة الله.

---

(١) [سورة المؤمنون: ١١٥]

(٢) [سورة الحجر: ٨٥]

(٣) [سورة الدخان: ٣٨ – ٤٠]

"{فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين

{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ} أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ} أي: مسطور مكتوب، وهذا حقيقة القضاء والقدر، أن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه".

فالعبد حين يعلم هذا الأمر يرجو من الله أن يكون من أهل الخير، يطلب منه أن يصلح قلبه وأن يجعله من أهل الجنة، فإن الأمر فيه من العبد صدق وحب ورجاء، وفيه من الرب–سبحانه وتعالى–عفو ورحمة وتقريب للخلق إلى طريق الله.

"{إِنَّ الْمُتَّقِينَ} لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر".

لم يقولوا قولًا باطلًا فيقولون: "نحن لو كنا مؤمنين وأراد الله أن نكون مؤمنين لكنا اتقينا!"، إنما هم بأنفسهم يتقون، يفعلون ما يستطيعون والله عليم بأحوال الخلق.

إن المتقين الذين بذلوا هم جهودهم وأظهروا لربهم خوفهم ورجاءهم، إن المتقين الذين لم يكذبوا على أنفسهم فيقولون: لو أراد الله هدايتنا لكنا اهتدينا، إنما هؤلاء المتقون اختاروا هم بقلوبهم والله أعلم بما في قلوب الخلق، اختاروا وقصدوا الحق ولم يتبعوا أهواءهم، وجاهدوا أنفسهم لما تاهت منهم، وطردوا الأفكار الباطلة لما وردتهم، والشبهات لما سمعوها ردوها، فاتقوا بقلوبهم كل ما يفسدها. إذن هؤلاء اتقوا، ما حالهم؟

"{فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه؛ ولهذا قال: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنّته."

"جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا. "

والحمد لله رب العالمين.

اللقاء الثامن والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثامن والعشرون من سلسلة اللقاءات المباركة في هذا الشهر المبارك، أسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من المقبولين الذين صاموا وقاموا إيمانًا واحتسابًا، اللهم آمين.

ومن ضمن العبادات التي نتقرب بها إلى الله **تدبّر القرآن**، ومن يتدبّر القرآن يلحظ أمرًا مهمًّا لمن شرح الله صدره وفتح عليه، **يرى السور كيف أنها في تتابعها غاية في الإحكام والاتساق والتناسب**، فإن بعضها آخذ برقاب بعض، فكل سورة تجمعها وجه مناسبة لما ختمت به السورة التي قبلها، وتكون مكملة لمقاصدها وموضوعاتها في صورة تحمل العبد على أن يعلم أن هذا الكتاب من لدن حكيم خبير، صورة تزيد الإيمان، صورة تجعل العبد يتربّى ويتأدّب بما في القرآن، وهذا الأمر ربما يظهر لبعض الناس وربما لا يظهر، ولكن من زاد تدبرًا، ظهرت له خواتيم السور مع افتتاحات السور وعلاقاتها، وظهر له مواضيع السور وتقاربها.

فإننا لو تأمّلنا فقط الفاتحة والبقرة لوجدنا أمرًا عجيبًا، فإن في قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)}[١]، سؤال من الخلق يريدون الصراط المستقيم، فكأنه قيل: ذلك الصراط الذي سألتم وأردتم هو الكتاب {الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ}[٢].

ومثله لو تأمّلنا في سورة قريش {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١)}[٣]، وسورة الفيل، وكثير يطوّل المقام في ذكره.

لكننا قدمنا هذه المقدمة لكي نتصور هذا الأمر المهم **وننظر إلى سورة المجادلة وما بعدها نظرة من هذه الجهة**، نمتّع أنفسنا بما رزقنا الله به من كتاب، وشرح الصدور للعلم، فالحمد لله الذي يعلم خلقه ويبين لهم ويسر لهم الطرق.

فلو نظرنا مثلا في سورة المجادلة إلى شيء من مواضيعها التي سيستمر، فنظرنا في الآية السابعة عشر في نقاش طويل وصلنا في الآخر الآية السابعة عشر {لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا} الأموال والأولاد وعلاقتك بهم، أنت إلى أية جهة تميل، وإذا نظرنا في الآية (١٩) في نفس سورة المجادلة سنسمع عن الشيطان {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ

(١) [سورة الفاتحة: ٦].
(٢) [سورة البقرة: ١ - ٢].
(٣) [سورة قريش: ١].

ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)} نسمع في الآية الأخيرة في سورة المجادلة {لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}(١) إذًا في آية (١٧) {لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا} وفي (١٩) سنجد الكلام عن الشيطان وكيف أنهم أصبحوا من حزبه، وفي آية (٢٢) سنجد مسألة الولاية ومودة من حاد الله ورسوله.

نأتي إلى سورة الحشر، فننظر في الآية (٩-١٠)، نبدأ بالتاسعة، علاقات أخرى، {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً}، {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ} هذه في الآية (١٠)، فهناك الذين تبوؤوا الدار والإيمان يحبون من هاجر إليهم، هؤلاء الأنصار والمهاجرين علاقتهم بعضهم ببعض، وفي الآية (١٠){وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)} كل هذا إشارة إلى علاقات من نوع خاص، فهناك في المجادلة كان الكلام عن الأموال والأولاد وكيف أنها لن تغني وكيف أنهم أصبحوا حزب الشيطان، وأن القوم المؤمنين لا يوادون من حاد الله، وهنا تسمع من اجتمعوا من أجل الإيمان، وأتى الذين من بعدهم يقولون: "ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان".

ثم نأتي إلى سورتنا التي هي مقصدنا، سورة الممتحنة، فنأتي إلى الآية (٣) ونجد قوله تعالى: {لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ} الأرحام والأولاد، الولايات، العلاقات، ستجدها واضحة جدا، إلى أن نجد الآية التي بعدها (٤) {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} ، وإذا فهمنا الآيات جيدا سنفهم كيف تكون العلاقات؛ لأن الآية المقصودة للدراسة تبين علاقتنا بإبراهيم-عليه السلام-وعلاقة إبراهيم بأبيه.

إلى أن نصل إلى **سورة الصف**، فنجد الآية (١٤) بعد نقاش {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ}، إذًا هناك حزب الله، وهناك حزب الشيطان، وهناك الولاية لله، وهناك الولاية لمن عادى الله.

إذًا حُذّرنا فيما سبق من أبنائنا وأهلينا وأرحامنا {لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ}(٢) وتأتي تختم الممتحنة بمبايعة المؤمنات على ألا يشركن، المبايعة التي فيها العلاقة، إلى أن نأتي في سورة الصف {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ}.

(١) [سورة المجادلة: ٢٢]

(٢) [سورة الممتحنة: ٣]

نأتي في **سورة الجمعة** {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)}[1]، الولايات، الارتباطات، العلاقات، كل هذا يوصف هنا وكيف يجب أن يكون.

إلى أن نأتي إلى **سورة المنافقون**، فنسمع الله-عزَّ وجلَّ-يقول لنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩)}[2]، الأولاد، الأموال، أي تسمع في سورة الجمعة {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} وتسمع في المنافقين {لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ}.

وفي **سورة التغابن** نجد في الآية (١٤و ١٥) الأمر واضح صريح {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} وفي الآية (١٥) {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥)} فكل هذا تأسيس وتقعيد للعلاقات بينك وبين الخلق حولك، كيف تنظر إليهم وإلى أي حزب تميل، مع من أنت؟ ولذلك سيتبيّن لنا إن شاء الله من المقطعين المختارين للدراسة اليوم كيف يجب لنا أن تكون علاقاتنا على ما يتيسر.

هذا كان في التغابن إلى أن نصل إلى **سورة الطلاق**، فسمعنا نحن في التغابن أن أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم، وفي الطلاق نسمع العكس، ربما أنتم تتعدون حدود الله بسبب عدم اتقائكم لله في التعامل مع هؤلاء، ففي الآية الأولى {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} في نفس السورة في آخر سورة الطلاق بعد الكلام عن الطلاق والعلاقة بين الزوج والزوجة، نأتي للآية (٨) {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨)}.

المقصود اتقوا الله يا أولي الألباب، كونوا على تقوى الله في علاقاتكم، لا تظلموا أنفسكم ولا تظلموا أزواجكم، فإن كانوا عدوًّا بالافتتان بهم وحبهم والتحزب لهم، لا تفعلوا الضد فتظلموهم.

إلى أن نأتي إلى **سورة التحريم** فنجد في الآية (٦) {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} هذه هي العلاقة التي يجب أن تكون، لا تتعلق بهم ولا تهضم حقهم، {قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}.

ووصف بالتفصيل هذا الأمر العظيم الذي يجب أن يكون في قلوبنا الخوف منه على نفسونا وعلى ذرارينا.

إلى أن نصل إلى مقصدنا في الآية (١١، ١٢، ١٣) في ضرب المثل للذين كفروا كيف كانت علاقتهم بنسائهم وكيف كانت علاقة نسائهم بهم، وبالعكس في امرأة فرعون ومريم ابنة عمران.

---

(١) [سورة الجمعة: ١]

(٢) [سورة المنافقون: ٩]

فما أعجب هذا الكتاب! وما أعظم ما فيه لتربية النفوس! عرفه من عرفه، وجهله من جهله.

اقرؤوا مرة أخرى هذه السور قراءة من يريد أن يعرف من هم حزب الله، الذين قال الله-عزَّ وجلَّ-عنهم في **آخر سورة المجادلة:** {أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢)} واقرأ في هذه السور لتعرف من هم حزب الشيطان الذين قال الله-عزَّ وجلَّ-عنهم في المجادلة: {أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٩)} حزب الشيطان هم الخاسرون، وحزب الله هم المفلحون، اقرأ في المجادلة لتعرف حزب الشيطان ما حاله.

واقرأ مثله في **الحشر:** {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)} اقرأ لتعرف مَن هم حزب الله، ومَن هم حزب الشيطان، كيف تجمع علاقتك مع هؤلاء، كيف تكون علاقتك مع هؤلاء الخلق، مَن توالي؟ ممن تبرأ؟ كيف يكون علاقتك مع القريبين من الزوج والأبناء وهم أعداء؟ كيف أنجو أنا وهم؟

فاقرأ هذه السور قراءة مَن يريد أن يصل إلى هذه المعاني، سبحان من أنزل الكتاب وأجرى السحاب، وشرح صدور أولي الألباب لفهم هذا الكتاب العظيم والنور المبين، فالحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي تمم علينا هذا الشهر نسأل الله-عزَّ وجل أن نخرج منه ونحن مقبولين، ونسأله-سبحانه وتعالى-أن يكون هذا الشهر مفتاحا لحياة طيبة مع القرآن، نبدأ بدراسة مقصدنا، نبدأ بموطن الممتحنة في قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)}[1].

هذه الآية واضحة الشأن في الإشارة إلى العلاقة بين الأرحام والأولاد وبيننا.

ولما تنظر إلى سورة الممتحنة يزيد بيانها وفهمها أن تعرف أن هذه السورة العظيمة نزل مطلعها في الموقف المعروف، في قصة حاطب بن أبي بلتعة-رضي الله عنه-، وقد كان رجلًا من المهاجرين وكان من أهل بدر وكان له في مكة أموال وأولاد ولم يكن من أهل قريش أنفسهم بل كان حليفًا لعثمان، فلما عزم النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-على فتح مكة لما نقض أهلها العهد وتجهز النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-للغزوة وقال: "اللهم غم عليهم خبرنا"، كان في ذاك الوقت حصل من حاطب بن أبي بلتعة أن بعث كتابًا مع امرأة من قريش، من أجل أن يخبر أهل مكة بهذا الخبر، فلما أخبره الله بذلك وتبيّن أمره، صدق رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، أتى حاطب وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال له ما فعل حتى أنه في كلامه

(١) [سورة الممتحنة: ٣]

قال: وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا، وَلاَ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ))، فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: ((إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ--عزَّ وجلَّ-اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ))[1].

فهذه القصة المعروفة هي **والله أعلم سبب نزول صدر هذه السورة**، وبذلك يتبيّن المعنى: أنه {لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} في من؟ {فِي إِبْرَاهِيمَ}، من أي جهة كانت لنا فيه أسوة حسنة؟! في علاقاته، في براءته {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ} هنا موقف البراءة، تبرؤوا منهم ومما يعبدون من دون الله، ليس فقط البراءة وإنما أظهروا أيضا الكفر {كَفَرْنَا بِكُمْ} بمعنى أنهم تبرؤوا وأظهروا اعتقادهم فيما يعبدون من دون الله، وأنهم يعتبرونه كفرا، {كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا} ظهرت {أَبَدًا} ، ما دمتم مستمرين على كفركم {حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}.

إذًا يا أيها المؤمنون عندكم أسوة في علاقتكم بالكافرين، أين هذه الأسوة؟ إبراهيم-عليه السلام-والذين معه، ماذا فعلوا؟ تبرؤوا وكفروا بالمعبودات من دون الله وعادوا وأبغضوا ووضعوا شرطًا في علاقاتهم وهو أن تؤمنوا بالله وحده، إبراهيم قدوة في التوحيد والإيمان وبالقيام بلوازم ذلك كله، {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} إذًا اتخذوه قدوة في كل شيء إلا في هذا الشيء لا تتخذوه قدوة.

{إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ} إذًا لا تتخذوا استغفار إبراهيم-عليه السلام-لأبيه قدوة، وتقولون في مسألة الاستغفار لأبيه إننا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك في سورة التوبة، قال: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)}، إذًا هو لكم قدوة في كل شيء إلا في قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وله في ذلك عذر، فاتخذوه لكم قدوة وأسوة، واتخذوه أسوة في توكله {رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)}.

ثم يدعوا فيقول: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)}.

كيف يكون الإنسان المؤمن فتنة للكافر؟ سنعرف من خلال كلام الشيخ إن شاء الله إجابة على هذا السؤال.

{وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)}.

---

(١) متفق عليه.

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)}.

نقرأ الكلام من كلام الشيخ ما يجيب على أسئلتنا من أجل أن ننتقل للمقطع الثاني.

قال الشيخ: **{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ}**.

"فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم". في الآية السابقة.

"قد كان لكم يا معشر المؤمنين {أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} أي: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم". هناك قدوة وائتمام ينفعكم، من هو؟

"{فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} من المؤمنين لماذا؟ **لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا".** وهو قدوتكم، وانظروا إلى أفعاله.

"{إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: {كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا} أي: ظهر وبان {بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ} أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حدّ، بل ذلك {أَبَدًا} ما دمتم مستمرين على كفركم {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية".

"فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده".

"{إلا} في خصلة واحدة وهي {قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ} آزر المشرك، الكافر، المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: {لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} الحال أني لا {وأَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} لكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا. فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة".

ألا وهي حالة الدعاء والاستغفار للمشرك.

"التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إن إبراهيم لأواه حليم}. ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه".

ماذا قالوا؟ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا.

"واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا} أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

{وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا} أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك".

إذًا التوكل والإنابة عبادتان تتكرران في القرآن تدلّان على الإيمان؛ لأن المؤمن قوي الإيمان يعلم أن الأمر بيد الله، وأنه هو الذي يصرف الأمور، وأنه ابتلى الناس بهذه الأقدار التي تجري عليهم، هذا يجعل الإنسان يطمئن لله ويعتمد عليه ولا يشغل نفسه إلا بالإنابة والعودة إليه، فينظر للأحداث التي تجري عليه على أنه مطلوب منه في هذه الأحداث أن يظهر لربه الرضا والثقة به، فما أن تحصل عليه أحداث إلا والتوكل والإنابة العبادتان اللتان لا ينفك عنهما مؤمن قوي الإيمان.

يقول: "فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعدّ للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك".

إذًا هذا هو الذي يشغلهم تمامًا:

- {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا} هذه العبادة الأولى (العبادة القلبية).
- {وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا} بجوارحنا وألسنتنا وقلوبنا، ونعود إليك بالطاعات، وكلما وجدنا أنفسنا قد غفلنا عن طاعتك نستغفرك على ما فات.

- ونحن نعتقد أنه {وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} هذا يدفعنا إليك ويجعلنا نطلب الزلفى عندك، فنستعدّ للقدوم عليك ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك.

ثم يطلبون طلبًا فيقولون: **"{رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا".**

ماذا يفعلون لنا؟ لها وجهان: الوجه الأول:

"فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان".

أي يتسلّط هؤلاء الذين كفروا، تكون سلطتهم على أماكن العبادات، على الأوضاع التي تساعد على العبادات، فيتسلطون سلطة إدارية أو يتسلطون سلطة سياسية أو حربية، نعوذ بالله من شرهم، فإذا تسلطوا وفي نفوسهم الحقد والحسد على المؤمنين وكراهية أن يكون أحد يمارس ما يخالفهم؛ لأن الإنسان لما يصل إلى حال السلطة يتسلط تسلطًا يوصله لدرجة أنه يريد أن يحمل الناس على رأيه، وأن لا يعتقد أن صلاحًا غير ما يقول، فما كان من هؤلاء إلا أن قالوا: {رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} فيتسلطون علينا، فيمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان. الوجه الثاني:

"ويفتنون أيضا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا".

أي: يرون المسلمين متأخرين، ويرون المسلمين يتصرفون تصرفات غير لائقة، فيكون هذا فتنة للذين كفروا، يقولون: لو كانوا هؤلاء على الحق لرأينا آثار الحق عليهم، لو كانوا هؤلاء على الحق لانتصروا، لو كانوا هؤلاء على الحق لما وقع عندهم هذا الفساد أو ما وقع عندهم هذا الباطل، ومن هذا الكلام الذي يجعل الكفار يُفتتنون بالمؤمنين فتنة تردهم عن أن يستقيموا على الدين.

"{وَاغْفِرْ لَنَا} ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات.

{رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ} القاهر لكل شيء.

{الْحَكِيمُ} الذي يضع الأشياء مواضعه".

لماذا يسألون الله بهذين الاسمين (العزيز الحكيم)؟

قال: "فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا".

قدِّر علينا من الأقدار ما يكون سببًا لنصرتنا وأنت العزيز القادر على نصرتنا، وأنت الحكيم الذي تجري هذه الأقدار بصورة توصلنا إلى النصر، وتوصلنا إلى المغفرة، وتوصلنا إلى إصلاح عيوبنا.

إذًا ننظر مرة أخرى لدعائهم من أجل أن تستقيم حياتهم، يطلبون من ربهم، يريدون أن يكونوا متوكلين، منيبين، مستعدّين للقاء الله، يتيقّنون أنهم إلى الله صائرون فيستعدّوا.

إذًا يريدون أن يكونوا متوكلين بقلوبهم فتستقرّ قلوبهم وتطمئن، ويريدون أن يكونوا ممن أنابوا إلى ربهم بالعبادات، أي: عادوا إليه وإلى طاعته وإلى مرضاته، فلا يبتعدون عنه، ويريدون أن يستعدوّا للقائه دائمًا ماذا قالوا: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}.

أيضًا علاقاتهم بالخلق تخيفهم، الناس حولهم يتخطّفونهم من كل مكان، ماذا يطلبون؟ {رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا}؛ لأنه عندما يغفر لنا الله، يصلح عيوبنا ويصلح قلوبنا، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠)}[1]، {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}[2]، يصلح لكم قلوبكم، يصلّح لكم نياتكم ومقاصدكم {رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} إذًا نحن نسألك هذه الأسئلة ونحن على يقين أنك العزيز الحكيم، فبعزتك تغلب وتحفظ وتمنع عن المؤمن الشر، وتغلب له أعداءه، وبحكمتك يكون هذا الأمر فتأتي التقادير عجيبة تزيد من إيمان العبد.

"ثم كرر الحثّ لهم على الاقتداء بهم، فقال: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}".

بدأت الآية (٤) بقوله: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ} وهنا {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}

"ثم كرر الحث لهم على الاقتداء بهم، فقال: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة".

ليس من السهل أن يكون إبراهيم-عليه السلام-إمام التوحيد وأفعاله قدوة يجعلها الإنسان أمام عينيه.

---

(١) [سورة الأحزاب: ٧٠]

(٢) [سورة الأحزاب: ٧١]

"وإنما تسهل على من {كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقرا ومضطرا إلى ذلك غاية الاضطرار".

إذًا ما الذي يجعل الإنسان يتيسّر عليه أن يجعل هؤلاء العظماء الذين أثنى عليهم الله قدوته؟ أن يرجو الله واليوم الآخر، أي مؤمن بالله ينتظر أن يلقى الله، وعلى يقين أنه سيلقاه، ماذا يفعل في الدنيا؟! يحتسب على الله أجور أعماله، يسبح وينتظر من الله أجر هذا التسبيح في الآخرة يوم أن يلقاه، ومن المؤكد أن التسبيح والذكر والدعاء والأعمال الصالحة كلها مقصدها أن نلقى الله وقد قبلها منا وتنفعنا لما نلقاه. لكن هذا لا يمنع أن يكون من آثار هذه الأعمال أن يصلح الله أحوال الخلق في الدنيا.

هم في أصل حالهم ماذا يريدون؟ {لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} أي إيمانًا واحتسابًا للثواب.

احتسابه بمعنى: أنه يرجو الله ويرجو أن يلقاه في اليوم الآخر، فيرجو أن يلقاه في اليوم الآخر وقد قبل أعماله التي عملها في الدنيا فيعطيه الثواب ويصرف عنه العقاب.

إذًا لو وُجد الإيمان بالله واليوم الآخر، يسهل على العبد كل عسير، فيتصور هذا القيام بين يدي الله، هذه الصلاة وهذا الصيام وهذا الحبس للنفس عن الطعام يتصوره وقد تحول إلى ما يوزن يوم القيامة، فتثقل الموازين.

فرأس مالك **عمرك** الذي عليك أن تشغله بالعمل، من أجل أن تلقى الله وهو راضٍ، فهذا يجعل العبد يسهل عليه كل عسير، ويُقلِّل لديه كل كثير، فإن الإنسان في مثل هذه الحال ينفق وينفق من وقته ومن جهده ومن ماله وهو يرى ذلك كله قليلًا في مقابل ما سيكون، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، إذا كان يرجو الله واليوم الآخر سيهتم بمن رضي الله عنه وأثنى عليه ماذا كان حاله؟ أنا أريد أن أسير مثلما سار هؤلاء، أريد يا رب الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، فتش عن الذين أنعم عليهم الله من الأنبياء والمرسلين والصحابة الكرام الطيبين، فتش عن هؤلاء وابحث عن أفعالهم وانظر إليهم نظر المعظم الذي يعظمهم لأن الله عظمهم.

فإذا كان اتخاذ القدوة من هؤلاء الذين أثنى الله عليهم إنما هو دليل الايمان، فعلى ذلك علينا أن نفتش في قدواتنا، وعلينا أن نقرأ فيما ذكر الله-عزَّ وجلَّ-من قدوات، كما في سورة التحريم لما ذكر-سبحانه وتعالى-مثلًا للذين آمنوا ومثلًا للذين كفروا، فكأنه يقال: كونوا على حذر من قدوة الشر، وتابعوا قدوة الخير.

إذًا خرجنا الآن من **سورة الممتحنة** بأن اتخاذ الأنبياء والمرسلين ومن أثنى عليهم الله في القرآن قدوات، هذا من الأدلة على أن الإنسان يرجو الله واليوم الآخر، الذي يرجو الله واليوم الآخر يقتدي بهم ويجعلهم أسوة، ومعنى ذلك ابحث عن قدوة الخير في القرآن، وأيضًا عندما يذكر لك بالذم أحد كن في جانب بعيد عن حال هؤلاء الذين ذمهم الله.

المقطع الثاني:

بسم الله الرحمن الرحيم

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)}[1].

نأتي لمثلين ضربهما الله للنساء، وهما بمثابة النموذج {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا} هذا المثل بمعنى النموذج:

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ} فماذا فعلتا؟ {فَخَانَتَاهُمَا} هل ينفعهما هذا؟ لا، لم ينفعهما، {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ}.

إذًا هذا يدلّ على أن القرابة لا تفيد شيئًا، إنما أنت من؟ ماذا فعلت؟ فلا يكن منك الشعور بالطمأنينة لأي سبب من الأسباب، لا قرابة لأهل الخير ولا نسب ولا صحبة ولا معاشرة لهم ولا أي شيء من هذه الأسباب أبدا، إنما هو ماذا فعلت أنت؟ فضع هذا النموذج أمام عينيك وكن على حال من التقوى شديد، نموذج خطير.

النموذج الأول: امرأة نوح، نوح-عليه السلام-أول المرسلين، من طال عمره في الدعوة إلى الله، من كان له المواقف العظام، دعا قومه ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، بذل وبذل في دعوته، لم تكن امرأة نوح من أهله الذين ركبوا معه في السفينة ونجوا، وقعت منهم الخيانة، ما معنى الخيانة هنا؟ ليست الخيانة خيانة النسب والفراش، إنما هنا الخيانة بمعنى المخالفة في الدين، والمخالفة في الاعتقاد، فمن هنا أتت الخيانة، هي وامرأة لوط فعلا هذا الفعل، النتيجة؟ لم ينفعهما، ولم يغن عنهما من الله شيئًا قرابتهم وكونهم من أهل بيت الأنبياء هؤلاء.

---

(١) [سورة التحريم ١٠- ١٢]

فما أعظم المخالفة وما أخطرها! وما أقوى الألم بانقطاع الحال وانقطاع النسب واختلاف الناس وقتما يأتي الحساب!

فهذا النموذج ضعه أمام عينيك وكن في حال خوف، لا ينفعك صحبة الصالحين، والعلماء، والمصلين، والصادقين، عليك بنفسك، لا تكن مع أهل الخير وقلبك خائن للخير لا يحبه ولا يريده، إنما وجدت نفسك مع أهل الخير فأصبحت معهم تدخل مدخلهم وتخرج مخرجهم {أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ} فهذا هو الأمر الخطير الذي إذا وقع على العبد منه شيء أي غش النفس، إذا وقع في القلب منه شيء خرج من أعماله كأنه لم يدخلها، نعوذ بالله من الخذلان.

في مقابل ذلك ضرب الله مثلا نموذج آخر من نماذج الايمان اتخذوه أسوة.

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ} وننظر إلى امرأة فرعون كيف وصفها الله، أول وصف لها أنهما نموذجًا للذين آمنوا رجالًا ونساء، انظروا كيف أثنى الله عليها {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ}، ما حالها؟ تتضرع إلى الله، تسأل الله، تسأل الله سؤالا يدلّ على قوة رجائها في الله والدار الآخرة.

تقول {ابْنِ لِي عِنْدَكَ} تطلب أجلّ الطلبات، هذا يظهر أن عندها أعظم الرغبة فيما عند الله، فمن أين أتت هذه الرغبة فيما عند الله؟ هذه الرغبة تأتي من قوة الإيمان، قوة الإيمان لا تضرها مخالطة الكافرين إن كانوا في حال من الاضطرار، فهي كانت تحت هذا الكافر، مضطرة لا تستطيع الخروج، كان فرعون أعتى أهل الأرض، فو الله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، هذا لتعلموا أن الله حكم عدل لا يؤاخذ أحدا إلا بذنبه.

وقد ورد فيما قيل إن امرأة فرعون كانت تعذب في الشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة، والله أعلم بالحق.

المقصود أن هذه المرأة كانت مثلا ولازالت اختارت الجار قبل الدار، {وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ} أي خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله {وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

المقصود أن اليقين الذي في قلبها جعلها تطلب النجاة من أقرب الناس إليها وأكثرهم سلطة عليها، وهو الذي يستطيع أن يغريها ويغريها بما معه من مال وما معه من سلطان، يغريها ويخيفها، ينذرها ويبشرها يعاملها معاملة السيد لأمته ومع ذلك قوى الله إيمانها.

"فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن؛ ولهذا قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))[1]".

ثم يأتي المثل الثاني:

{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)}[2].

"وقوله {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها".

{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} الإحصان: هو العفاف، فحفظته وصانته، وأعظم ما يأتي البلاء للنساء من هذا الباب، فالله -عزَّ وجلَّ-وصفها بأنها كانت محفوظة من الفاحشة؛ والسبب كمال دينها، عفتها، نزاهتها، بعدها عن الشبه، صبرها.

"{فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} بأن نفخ جبريل-عليه السلام-في جيب درعها فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم عليه السلام، الرسول الكريم والسيد العظيم".

{فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} وهذا كان بواسطة الملك، فجاء من هذه النفخة عيسى-عليه السلام-، فنفخ جبريل في جيب درعها، فوصلت نفختها إليها فحملت بعيسى-عليه السلام-.

"{وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ} وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل".

{وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ} فمثل هذا الذي حصل عليها أمر جلل عظيم، أمر لا يحتمله إلا من كان مؤمنًا، فهي وصفت بالعلم والمعرفة؛ لأن التصديق بكلمات الله معناه تصدق أمره الديني-الأخبار الدينية-وتصدق الأخبار القدرية،

(١) صحيح البخاري (٣٤١١) ومسلم (٤٣١).
(٢) [سورة التحريم: ١٢].

تصدق الكتاب، وتصدق ما وقع عليها من أقدار، وقد وقع عليها قدر عظيم، فصدقت أنه من عند الله وآمنت ووصفت بالعلم، وهذا كله مما علينا أن نتخذه نموذجا وأسوة.

"ولهذا قال: {وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} أي: المطيعين لله، المداومين على طاعته بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها رضي الله عنها صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل".

وهذا وصف لها بكمال العمل، والصديقية: هو اجتماع كمال العلم وكمال العمل، وقد اجتمع في حقها مريم الصديقة.

فإذا علمنا ذلك، عرفنا أن هذه النماذج، **نماذج الإيمان**، إبراهيم-عليه السلام-والرسل، والأحداث التي حصلت في حياتهم، وامرأة فرعون وعلو شأن مقصدها، ومريم ابنة عمران وعلمها وفقهها وإيمانها وتقواها وعفافها، كلها نماذج تُشهر ويُسمع عنها ويُكرر وصف تفاصيل أحوالهم كما ورد في الكتاب والسنَّة، ومن هنا تعرف مع من ترتبط وبمن تتعلق وكيف توالي وتبرأ.

فلا تظنّ أنه تنفعنا الدعوى عندما نلقى الله، إنما الحقائق التي نحملها في قلوبنا هي التي تظهر عندما نلقى الله، لا تظنّ مخالطة أهل الإيمان تكفي عن أن تفتش عن الإيمان في قلبك، ولا تظنّ أن دعوى الإيمان تكفي، بل علينا جميعًا أن نجعل هؤلاء العظماء الذين ذكروا في القرآن نماذج أمام عينينا، ونعرف أن الاختبارات تأتي على العبد وأنه عليه أن يكون متبعًا في ظنه، وفعله، وتفكيره حال هؤلاء الكرام كما أمر الله-عزَّ وجلَّ-وأخبرنا عنهم.

نحمده-سبحانه وتعالى-أن حقق لنا المقصود، ونرجو منه أن يكون هذا بداية لخير، نبحث عن أحوال هؤلاء نجعلها أمام أعيننا وننشرها بين أبنائنا وذرارينا.

اللقاء التاسع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تهنئةٌ وعزاء!

خرج علي ابن أبي طالب رضي الله عنه آخر ليلة من رمضان فنادى ورفع صوته قال: "من هذا الذي فاز في رمضان فنهنّئه! ومن هذا الذي خسر في رمضان فنعزّيه!

وهذا كلام مَن فَقِه ما هي هذه الأيام التي مرت عليك؟! وما هي هذه النعمة التي سترحل عنه؟! هل هو فيها من الفائزين أو-نعوذ بالله من الخذلان-كان فيها من المخذولين!.

ونحن في هذه الكلمات نبذل جهودنا أن نحذر أن نكون كحمقاء مكة التي حذّر الله المؤمنين من حالها: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا}(١).

والفتور بِحُجَّة الراحة بعد رمضان يخالف ما يجب عليك أن تفهمه من أن الرحلة لا راحة فيها إلا مع أول قدم في الجنة نسأل الله من فضله، **سُئل الإمام أحمد: متى الراحة؟ قال: "عندما تضع أول قدم من قدميك في الجنة"**.

فلهذا سيكون موضوعنا هو الكلام عن **أسباب الثبات** على الطاعة خاصة بعد هذا الشهر الفضيل، وإن كانت هناك عوامل تخصّ هذه الحال التي نحن فيها في السنوات الأخيرة وخاصة هذه السنة، لعلنا لم نمرّ في حياتنا بمراحل حرجة من حروب وفتن مثل ما يمر بها عالمنا اليوم، لو فكَّر فيها العبد لشرد ذهنه وانخلع قلبه مما يرى! مسلمين يقتل بعضهم بعضًا! وتذهب بركات أعمارهم ولياليهم الفاضلة وخيرات أرضهم، وترى الناس متأججة أحوالهم في شرق أو غرب، كل هذا يزيد حاجتنا للكلام حول الثبات.

(١) [سورة النحل: ٩٢]

إنّ الثبات على الحق والتمسك به من صفات المؤمنين الصادقين، قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}(١) والنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-لاقى ما لاقى، ومع ذلك نفعه الله-عزَّ وجلَّ- بما علمه وأوصله بفضله إلى الثبات، فقد لقي ما لقي ومع ذلك كان أشدّ ثباتًا حتى بلّغ رسالة ربه على أتمّ وجه.

إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف يشاء، وقد ورد في الحديث ((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)). ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم- ((اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ))(٢).

وهذه أم سلمة رضي الله عنها تُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ-صلَّى الله عليه وسلَّم-كَانَ يُكْثِرُ فِي دُعَائِهِ ((اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)) قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ الْقُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قَالَ: ((نَعَمْ مَا مِنْ خَلْقٍ لِلَّهِ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلا وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ فَإِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ))(٣).

فهذا من الأدلة العظيمة التي تدلّ على أنّ الإنسان عليه أن يكون في حالة تأهّب واستنفار في حياته، **والواقع الملموس يشهد أن كل شيء يتقلّب:**

- كم من روضة فيها زهر يانع أصبحت هي وزهرها يابس هشيم!
- وبينما ترى الرجل من أهل الخير والصلاح ومن أرباب التقى والفلاح، قلبه بطاعة ربه مشرق سليم، إذ به ينقلب على وجهه فيترك الطاعة ويتقاعس عن الهدى!
- والعكس بالعكس ترى أن هناك بعيدين يقربهم الله-عزّ وجلّ-.

نذكّر أنفسنا بهذا الأمر الذي يخيف أولي الألباب، تنفطر منه قلوب الأتقياء وتتصدّع له أكباد الأولياء، كيف والخاتمة مغيبة والعاقبة مستورة، والله غالب على أمره، والنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- يقول: ((فَوَالَّذِى لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا))(٤).

---

(١) [سورة إبراهيم: ٢٧]

(٢) صحيح مسلم(٢٦٥٤).

(٣) التوحيد لابن خزيمة، والمعجم الكبير للطبراني.

(٤) صحيح مسلم(٢٦٤٣).

فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، فلا تركن ولا تأمن، ولا تعدّ حسناتك فإن عند الله لا يضيع شيء، إنما ابكي على تفريطك، واعلم أنه-سبحانه وتعالى-كريم رحيم، وقد ورد فيما يقال إن بعض السلف طلب من جلسائه أن يعدّوا أكثر شيء يعرفونه فعدّوا وعدّوا وقالوا: أكبر ما نعرف السماوات والأرض، فقال: "رحمة الله أكبر شيء فهي التي وسعت كل شيء"!

فنحن في طمع في رحمته، وفي خوف من تقصيرنا، **فإذا انتهى موسم مثل هذا الموسم يبقى الخوف من التقصير مع الطمع في الرحمة يحركنا**، فلا نركن لطاعة ولا نقنط من رحمة الله، ولابد أن نعلم على قدر ثباتنا على الصراط المستقيم الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثباتنا على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيرنا على هذا الصراط في الدنيا يكون سيرنا على ذلك الصراط، معلوم أن منهم من يمرّ مرّ البرق، ومنهم من يمرّ مرّ الريح، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبوا حبوا، ومنهم المخدوش، ومنهم من يسقط والعياذ بالله في جهنم، وهل تجزون إلا ما كنتم تعملون!

وهذا الصراط المستقيم هو الذي نرغبه، وندعو الله-عزَّ وجلَّ-مرات ومرات في يومنا {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)} ثبّتنا على طريق الصالحين، طريق أهل الايمان، طريق أهل التقوى، طريق أهل التوحيد، طريق الذين أنعمت عليهم وسمعنا عنهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وما علينا في مثل هذه الحال إلا ان نجمع بين أمرين مهمين:

١. عمل القلب.
٢. عمل الجوارح.

أولًا: عمل القلب

إنّ من أهمّ أسباب حصول الاستقامة على الطريق المستقيم والثبات:

١) الشعور بالفقر إلى تثبيت الله

ليس لنا غنى عن الله، والله-عزَّ وجلَّ-يقول لنبيه {وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)}[1] ولذلك كان فعل النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-أن يقول: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ).

والفقر شعور مريح، يجعل الإنسان يخرج الأمر من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، أنا فقير لا أستطيع لنفسي شيئًا وليس لي حول ولا قوة، ولكن لن أثبت إلا إذا أنت ثبّتني، ولن أستقيم إلا إذا أنت جعلتني مستقيمًا، فالشعور بالفقر والحاجة إلى التثبت قربة بنفسه إلى الله، الخوف من الزيغ قربة تعبد بها الله، الفقر وألمه قربة، والخوف وألمه قربة، فسبحان من جعل مشاعر الناس التي تكون في قلوبهم مدفونة لا يشعر بها أحد، لا يدري عنها أحد، يطلع عليها الملك العظيم جعلها قرب إليه، فهذه القربة التي عليه تؤجر وبسببها تثبت وهي رأس أسباب الثبات، تستطيع أن تفعلها بل تستطيع أن تقوم بها ولا تفارقك أبدًا، وهذه حال المنيبين، أنهم دائمًا يعودون، يغفلون فيذكرون، ينشغلون فيتنبهون، فيفرون مباشرة إلى ربهم.

فهذه العبادة وهي الشعور بالفقر إلى تثبيت الله عليك أن لا تنفك عنك، أن تبقى معك أطول زمن، وهذا الشعور صحيح لابد أن يكون وراءه فعل، لكن ابدأ به وكن فيه صادقًا ولا تعزم على خلاف ذلك.

يعني كان من عادتك في رمضان أن تصلي قيام الليل باسم التراويح والتهجد، قيام الليل هو نفسه مشروع في رمضان وفي غيره فماذا يقوم في قلبك؟ يقوم في قلبك الشعور بالفقر لله أن تقوم بمثل ما كنت تقوم، والفزع أن تحرم من قيام الليل، تفزع تخاف من هذا الحال، تخاف أن تحرم، فإذا جمع الإنسان بين الفقر والفزع كان قد بدأ في شق الطريق للثبات، أما إذا أمن أو رأى أن هذا خاص برمضان، وأن ما قمت به في رمضان يكفيني عن غيره، فهذا شعور بنفسه لا يصلح، وهو شعور عبد قد استغنى عن رحمة ربه، فنعوذ بالله من الاستغناء، نحن تامي الفقر لهدايته.

ومن الأعمال القلبية التي تسبب الثبات على الطريق:

٢) عدم الأمن من مكر الله

(١) [سورة الإسراء: ٧٤]

أنك عبد لا تأمن أن يمكر الله بك بسبب دسيسة في قلبك، دسيسة في قلب الانسان تسبب أن يمكر الله-عزَّ وجلَّ-به فيظهر حقيقة حاله.

وقد قطع هذا الخوف-خوف مكر الله تعالى-ظهور المتقين المحسنين، وغفل عنه الظالمون المسيئون، كأنهم أخذوا من الله الجليل عهدًا أن يدخلهم الجنة!

أما المحسنون فهم على جلالة قدر أعمالهم وعمق إيمانهم ورسوخ عملهم، لكنهم يعلمون أن الأمر كله بيد الله.

فيحسن بنا أن يكون أعيننا على قلوبنا ونتقرب إليه بمشاعرنا، بالشعور بالفقر، بالشعور بالفزع.

أيضًا من القرب القلبية المهمة:

٣) التوكل عليه والاعتماد عليه وسؤاله الحول والقوة

نتوكل عليه حال إقبالنا على طاعة وحال أن يحين وقت عبادة كنت تقوم بها في رمضان، فإذا وفقت لصيام الست فاسأل الله الحول والقوة لذلك، وإذا كنت المرتحل الذي يكمل ختمته ويقرأ كتاب ربه ويفهم عن الله فاسأل الله الحول والقوة، فإن مصاحفنا تكون أمامنا وكتب التفسير حولنا وننظر لها نظر المشتاق لأن يعبد الله ثم نجد نفسنا ليس لنا قوة! فمعناها أن القوة كلها لله، فكما أننا فقراء نخاف من مكر الله كذلك نحن نتوكل على الله ونعتمد عليه أن ييسر لنا الأسباب التي بها نثبت، وبها نعمل، وبها نصل إلى رضاه.

أيضا من القرب القلبية التي نرجو أن تكون قربة:

٤) أن نفرح بانقضاء الطاعة وأن الله-عزَّ وجلَّ-سدّدنا

وهو أمر من عجائب هذا الدين، فإن الله-عزَّ وجلَّ-كما أمرنا أن نجمع قلوبنا على طاعته وأن يكون في نفوسنا حب الطاعة وحب أوقاتها، ولما يأذن الله-سبحانه وتعالى-بانتهاء هذه الأيام يصارع الإنسان شعوريين: بين شعور الحزن على الفراق، وبين شعور الآخر وهو الفرح بانتهاء الطاعة، فماذا يكون؟ يأمر الدين أهله أن يكونوا من أهل الفرح بهذا الموسم العظيم، فالله-عزَّ وجلَّ-أمر أهل الدين أن يفرحوا بطاعته والحمد لله رب العالمين.

نعبده–سبحانه وتعالى–بعبادة الفرح على مواسم الطاعات وهذا يأتي من ورائه التكبير، ويأتي من ورائه سؤال الله القبول، والفرح من العبادات القلبية، وهذا شأن عظيم في الدين، فإن مشاعرك ليس على هواك لا يغلب عليك حزن خروج الشهر على الأمر بالفرح بانتهاء موسم الطاعة والتوفيق إلى القيام بها.

فوقت خروجنا من هذا الشهر الكريم، نسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن نخرج سالمين غانمين مع ما يكتنفنا من الحزن على فراقه، وقد يكون حزنًا للطاعات حزنًا أنك فارقت شهرًا لا تدري ما أودعته وإنما تلقاه يوم القيامة، تلقى أعمالك يوم القيامة فتفحصها، وممكن أن يكون حزن من أَلِفَ واعتاد، وشتان بين حزن من أَلِفَ واعتاد وبين من عمر قلبه بالإيمان فاشتاق إلى تلك الليالي الطيبة.

ومن الأسباب التي تثبتنا على الطاعة:

٥) ترك ما لا يعنينا

فإن أعظم ما يفسد الإنسان ويبعده عن الاستقامة على طريق الحق انشغاله بما لا يعني، فإن الإنسان لا يصل إلى درجة الإحسان في الإسلام إلا إذا ترك ما لا يعنيه، وهذا أمر يغفل عنه كثيرون، فلما يكون فيه شيء من العزلة لطاعة الله في رمضان ثم يأتي العيد فتجد الناس يزيد اختلاطهم بعضهم ببعض فيضعف إيمانهم، ومن مرسلات الإمام أحمد أنه أورد–وذلك أيضا في موطأ الإمام مالك–: ((من إيمان المرء تركه ما لا يعنيه))[١]، فالمعنى أن انشغال القلب بما لا يعني، سبب لانشغاله عما يعني، فيكون في نهاية الأمر قد ضعف ايمان العبد الذي بذل جهده في تجميعه خلال الشهر.

إن الإيمان نقطة نقطة يجتمع، فيضيع بانشغال القلب بما لا يعني، واليوم وسائل الانشغال بما لا يعني تفوق التصور! وهي تجرّ الإنسان جرًّا ويصبح الإنسان في حالة من الإدمان على الانشغال بما لا يعني، وترى في صفحات المتصفحين، وفي مرئيات من يرون ترى عناوين مثيرة تدفع الإنسان إلى الشره في الاطلاع على ما يسموه الواقع، فيصبح شرهًا ولا يشبعه شيء، وترى المقطع يجرّ المقطع، والخبر يجرّ الخبر فيما يتصفحه ويراه، أو فيما يكون حوله من أخبار الناس، ففي نهاية الأمر يكون العبد بذل جهده وأقام أمر ربه على نفسه ووجد أثره في قلبه من الإيمان، ثم يتدخل فيما لا يعنيه أو يسأل عما لا يعنيه أو يشاهد أو يقرأ او يتابع، فتراه قد أذهب بقلبه!

(١)رواه الثقات عن الزهري منهم مالك في الموطأ، ويونس ومعمر وإبراهيم بن سعد.

إذا تكلمت فاذكر سمع الله لك، وإذا سكت فاذكر نظره إليك.

الاستحياء أن ينظر الله لنا ونحن نذهب بقلوبنا وأسماعنا وأبصارنا فيما لا يعنينا!

على كل حال الانشغال بما لا يعني أمر عظيم، كثير من الناس لا يقدرون خطره، وقد ورد في حديث لأبي هريرة مرفوعًا: ((أَكْثَرُ النَّاسِ ذُنُوبًا أَكْثَرُهُمْ كَلَامًا فِيمَا لَا يَعْنِيهِ))[1]! فالمعنى: أن ترك ما لا يعنينا سيجعل قلبنا في حال فراغ لما يعنينا، وسيبقى قلبنا سليمًا للمسلمين، وكل خبر جهله لا يضر وتبقى في سلامة من دينك فهو مما لا يعنيك.

فالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

ثانيًا: عمل الجوارح

من الأسباب التي تسبب الثبات على الدين:

١) العناية بالأعمال الصالحة

فإن الله قد شرع في كل زمن وظيفة:

- فها هو الليل وقيامه.
- وها هو الفجر وسنته التي هي خير من الدنيا وما عليها، فكيف بصلاة الفجر التي قال الله عنها: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}[2] قال السعدي في تفسيرها: " **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ أي: صلاة الفجر، وسميت قرآنا، لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة فيها حيث شهدها الله، وملائكة الليل وملائكة والنهار**".
- وها هي أذكار بعد الصلاة وأذكار الصباح.
- وها هو الضحى وصلاته.
- وها هو ذكر الله وقراءة القرآن.

---

(١)ر واه ابن أبي شيبة.

(٢) [سورة الإسراء: ٧٨]

- والظهر وما له من سنن.
- والصيام.
- والعلم.
- والبر.

وأبواب الخير العظيمة التي يوفق الله لها من شاء من عباده، يفتحها على الخلق فمن أبصر ولج، ومن عمي أعرض ولم ينتفع، وإن الله من كرمه أن يفتح لكل عبد ما يناسبه من عمل ويفتح له أبواب للخير، أبواب إعانة المسلمين، أبواب تعليم للمسلمين، أبواب كف الشر عن المسلمين، كلها أبواب، فما أعظم من أبصر، فيا بصير بصِّرنا، ويا خيبة وخسار من عمي نعوذ بالله من الخذلان.

أيضا من أسباب الثبات على الطاعة بعد رمضان:

٢) الإقبال على كتاب الله خاصة تلاوة وتعلّمًا

وإذا أحسنت عَلِّم، فنتلو كتاب الله ونتعلمه ونعمل ونريد من هذا كله أن نصل إلى للثبات. وهذا يجعلنا نقول أن آية في اليوم، مشروع تخرج منه بخير كثير إن أحسنت، يعني آية في اليوم تفهمها وتبذل جهدك في بيان معناها من خلال كتب التفسير، وتبحث بحث من يريد أن يتقرب إلى الله، والله يقول: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)}[1].

إذًا هذا القرآن قراءته وتلاوته وتدبّره أحد أعظم أسباب الثبات، فلابد من مشروع يحرص عليه الإنسان ولا يفوته، وكلٌّ أدرى بنفسه، فمن سامع، ومن قارئ، والخير الحمد لله مفتوح وموجود، وأهل العلم متكاثرين، ومن هم على المنهج الصحيح متوافرين فالفضل لله، فإما تقرأ وإما تسمع من أجل أن تفهم آية من كتاب الله.

(١) [سورة النحل: ١٠٢]

أيضًا من أسباب الثبات على الحق:

٣) الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي

الصبر حبس النفس على طاعة الله، وحبس النفس عن معصية الله، والبحث عن ما يزيد هذا الصبر، فمما يزيد الصبر: أن يبتعد الإنسان عن الأشياء التي تثيره للوقوع في المعصية، ويقترب من الأسباب التي تزيده انشراحًا للطاعة، وهذا يلزمنا معه كثرة الدعاء بالثبات، فنصبر وندعو (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك).

فيكون من أسباب الثبات:

٤) سؤال الله التثبيت.

وأيضًا من أسباب الثبات على الحق والهدى:

٥) ترك الظلم

إنّ الظلم ظلم النفس بالشرك أو المعاصي، أو ظلم الناس والتعدّي عليهم، هذا من أسباب وقوع الإنسان في الزيغ والهلاك والضلال، فلنحذر من ظلم الخلق، ولنحذر من سوء الظن في المسلمين، ولنحذر من إطلاق التهم ومن التهاون بالكلام عن أعراض المسلمين، كل هذه الأمور تحتاج إلى حذر، وإن الوقوع في الظلم كما هو معلوم سبب لظلمات يوم القيامة! وفي الدنيا يكون سبب للزيغ والضلال.

أيضا من أسباب الثبات:

٦) كثرة ذكر الله

فذكره-سبحانه وتعالى-حياة الروح وروح الحياة، فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره؟! {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)}[1].

فكثرة ذكره-سبحانه وتعالى-سبب لنزول البركات والخروج من الظلمات.

ومن الأسباب أيضا للثبات:

٧) بذل الجهد من العبد والشوق إلى أن يكون مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر

فيسعى بماله أو بسلطانه أو بجاهه أو بفكره أو بما يملك لأن يكون مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر، وأحيانا لا يكون الإنسان مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر بما يملك هو ولكنه يدعوا لمن يملك، يسأل الهدى والصلاح لولي أمره ويكون صادقًا في ذلك، ويدعوا الناس للدعاء لولي أمرهم أن يدله الله الرشاد ويصلح له بطانته ويدله على الحق إلى آخر ما في هذه الأعمال من خيرات.

فالمعنى أن الانسان يجد في نفسه قوة على أن يكون مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر، أو يجد في نفسه قوة أن يدعوا لمن جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر فيشاركه في أن يكون مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر.

ومن أسباب الثبات:

٨) مراعاة الجلساء

الحفاظ على الجلوس مع أهل الإيمان ومراعاة من تجالس، فالحذر الحذر من صحبة تسحبك فتذهب بك، فإن الأصحاب لهم أثر السحر في تعظيم الأمر أو في تضعيفه.

(١) [سورة الأحزاب: ٤١ ٤٣]

نلخص ما مضى ونقول: نريد أن نداوم على العمل الصالح ولو كان قليلًا، فنطلب من الله-عزَّ وجلَّ-**بقلوبنا** مفتقرين إليه، خائفين أن نخذل، متوكلين عليه، فرحين بما أعطانا من خيرات، ونرجو منه المزيد والقبول والثبات.

وبجوارحنا نداوم على الأعمال الصالحة، ونحن نعلم أن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ، ومن قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، ومن صام يومًا في سبيل الله باعد الله منه جهنم مسيرة مائة عام، وقد ورد في الحديث الذي صححه الالباني: ((مَنْ خُتِمَ لَهُ بِصِيَامِ يَوْمٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ))[1].

ومن جهة أخرى نبذل جهودنا أن نحافظ على أنفسنا من المعاصي، فنشغل نفسنا بما يعينا ونبتعد عما لا يعنينا، نشغل ألسنتنا بذكر الله من أجل أن لا تنشغل بذكر غيره، نكون على حذر من صحبتنا، {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)}[2] وكما قال النبي: ((المرء على دين خليله))[3] فكل هذا يجعلنا نقول نصبر على الطاعة ونصبر عن المعصية ونختار لنا جلساء يساعدونا على هذا الصبر.

مما يعيننا أيضًا على الطاعات في ملخص الكلام: طلب العلم، الدعوة إلى الله، خدمة المسلمين، لا تعش لنفسك، عِش من أجل أن تجعل الجماعة الذين حولك طريقك إلى الله، هذا يعين العبد على الطريق، أن يجعل كل من حوله طريقًا إلى الله.

ويأتي الأمر المهم وهو الدعاء، الدعاء الذي على العبد أن لا يفتر منه، يدعوه بالثبات، ويدعوه بالصلاح له ولذراريه وللمؤمنين، يدعوه بالقبول ويرجوه وهو ممتلئ حبًّا له-سبحانه وتعالى-ورجاءً أن يلقاه وهو عنه راضٍ: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، ما أعظمه من دعاء يدلّ على فقر العبد، وهذا الدعاء من سنَّة النبي-صلى الله عليه وسلم-، وكان يكثر منه ونحن أحق به-صلَّى الله عليه وسلَّم-أن نكثر منه لما فينا من ضعف، ولما حولنا من فتن، ولما نجد في نفوسنا من انقلابات، فلنكن على حذر من نفوسنا قبل الحذر من الناس.

ونختم هذا اللقاء بأمر دقيق يحتاج منّا إلى تأمّل وتفكير وهذا الأمر هو موقفنا مما يمرّ علينا من أحداث في حياتنا التي تخّصنا من أقدار تجري من الله، **إن الناس في هذا الشأن ثلاثة:**

---

(١) مسند البزار، صححه الألباني.

(٢) [سورة الكهف: ٢٨]

(٣)

١) هناك من يقع عليه القدر الذي لا يلائمه، فيشتكي الله للناس.

٢) وهناك من يقع عليه القدر الذي لا يلائمه، فيشتكي لله.

٣) وهناك من يقع عليه هذا القدر الذي لا يلائمه، فيشتكي نفسه لله، يشتكي تقصيره وإسرافه، ويشتكي جزعه وعدم صبره.

فإذا زاد إيمان العبد والحياة كلها تحولات وتقلبات، وها نحن كنا نرحب برمضان، شهرًا خصّه الله بميزات، زيادة الايمان والعتق من النيران، وها نحن نودّعه! وتستطيع أن تقول إنه أقلّ من غمضة عين! أقل من لمح البصر! فهكذا الحياة فيها من التقلبات ما فيها، وفيها من الأقدار والاختبارات ما فيها، فكن ذاك العبد المؤمن الذي نفعه إيمانه، يشتكي نفسه لربه، يشتكي تقصيره، يشتكي بطره ويشتكي قلة صبره، فاذا اشتكى طلب من الله أن يرزقه صبرا، طلب من الله أن يرزقه ايمانًا، طلب من الله يرزقه صدقًا، طلب من الله أن يبعده عن الرياء.

ونقول هذا الكلام من أجل أمر مهم وهو أن من كان ديدنه شكوى نفسه لربه، فهذا قد تبصّر نفسه في الدنيا، عينه على نفسه، يعرف من أين أُتي، ماذا حصل له؟ ماذا ينقصه الآن؟ أنت سمعت أن الله يبتلي العباد بعضهم ببعض وأمرت أن تصبر على الابتلاء ووجدت نفسك شديد الجزع ضعيف، إذًا أُشكُ نفسك الضعيفة التي لم تمتثل أمر الله، أُشكُها إلى الله، واطلب منه أن يمدّك بالحول والقوة لتأتمر بأمره.

يأتي عليك اعتداء من الخلق، فماذا يكون شأنك؟ تعرف من أين أوتيت وما الذي جعلهم عليك يتجرؤون أو لماذا الله-عزَّ وجلَّ-ابتلاك بهم؟ فقد أطلقت لسانك سابقًا على أحد فأتاك القول المبين فشربت من نفس الكأس! فاشكُ نفسك التي تتجرأ على الخلق.

إنّ من شكا نفسه لله فقد تبصّر عيوب نفسه، وما أحسن أن يكتشف الإنسان عيوب نفسه، فإن اكتشاف العيوب طريق للتطهير، طريق يسير للتطهير، أما من غفل عن عيوبه واعتنى بصلاته وصيامه ربما كان هذا على غش، ربما كان قلبه مليئًا بالدسائس والأمراض والعظائم والأهوال، فلم يكن سليمًا، فلا تراه إلا راكعًا ساجدًا صائمًا قائمًا ليس له نصيب من هذا كله! اللهم سلم سلم...اللهم سلم سلم. {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)}[١].

(١) [سورة الشعراء: ٨٩]

وليس لنا رجاء إلا في الله، أن يطهر قلوبنا مما فيها ومما أدخلناه عليها ومما زدناه فيها، فقد تخطفتنا الأهواء ودخلت الأمراض من كل جهة، والعجب شدة عناية الناس بعلاج أبدانهم وقلة عنايتهم بتطبيب قلوبهم، وأنت لست إلا قلب إن طاب طابت الدنيا، فاللهم طيّب قلوبنا، طبّبها فإليك المشتكى، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نرجو من الله أن تكون هذه اللقاءات التي مضت سببًا من أسباب رفعة منزلتنا عنده، وأن تكون مما يثقل ميزاننا حين نلقاه، وتكون سببًا لاجتماعنا في جنات النعيم على سرر متقابلين، فليس معنا إلا ضعيف العمل ومدخوله ومغشوشه، فليس لنا إلا أنت يا ربنا، فاغفر لنا نقص أعمالنا واشكر لنا قليله، إذا أمدّ الله في العمر نسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يمدّ في أعمارنا على طاعته، فان لم يكن لنا في الحياة خير فنسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يصرف عنا الفتن ويقبضنا إليه غير مفتونين، إن أمدّ الله في العمر نلتقي على هذا الكتاب العظيم نزداد به إيمانًا ونصل به إلى رحمة رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

اللقاء الثالث والعشرون ٣

تفسير الآيات: ٣٠-٤٧ من سورة يس ٣

اللقاء الرابع والعشرون ١٦

تفسير الآيات ٣٠-٣٦ من سورة فصلت ١٦

اللقاء الخامس والعشرون ٣٣

تفسير الآيات ١٣-١٦ من سورة الشورى ٣٣

اللقاء السادس والعشرون ٥١

تفسير الآية ٢٩ من سورة الفتح ٥١

اللقاء السابع والعشرون ٦٥

تفسير الآيات ٤٣ – ٥٥ من سورة القمر ٦٥

اللقاء الثامن والعشرون ٧٩

اللقاء التاسع والعشرون ٩٤